اسم الشافي

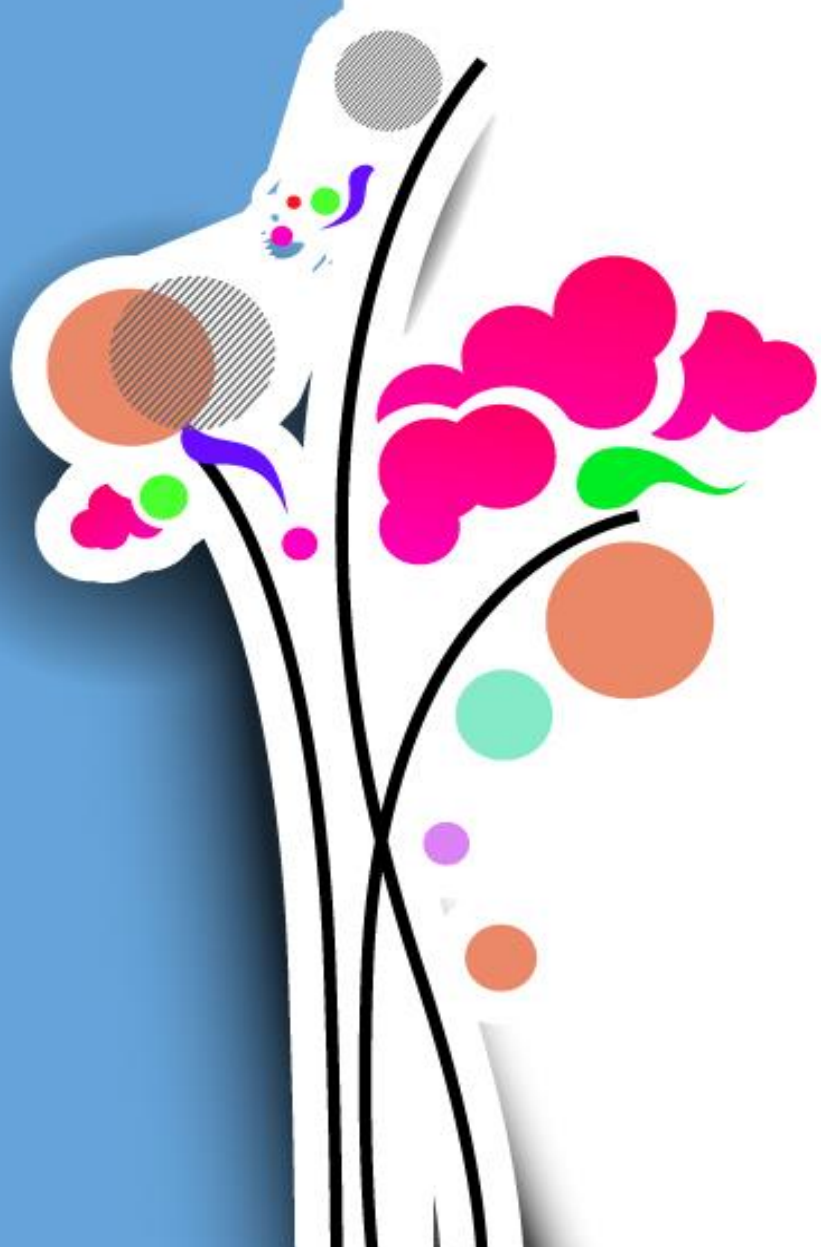

أ. أناهيد السميري

بسم الله الرّحمن الرحيم

أخواتنا الفاضلات، إليكن سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

https://anaheedblogger.blogspot.com/

تنبيهات هامة:

- ✓ **منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.**
- ✓ **هذه التّفاريغ من اجتهاد الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.**
- ✓ **الكمال لله –عزَّ وجلَّ–، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.**

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسأل الله–سبحانه وتعالى–بمنّه وكرمه كما يسر لنا هذا اللقاء أن ينفعنا به وأن يجعله مثقلًا لموازيننا، اللهم آمين.

سنبدأ هذه الدورة بالكلام عن اسم الله الشافي، ونذكر في البداية أسباب اختيارنا له:

سبب اختيار اسم الشافي:

- **السبب الأول: كثرة الأمراض مع كثرة التعلق بغير الله:**

المرض هو أحد أهم الأمور التي يحصل عندنا فيها إشكال؛ لأن المرض أمر شديد على الناس، ونحن في زمن كثرت فيه الأمراض سواء كانت أمراضًا نفسية أو أمراضًا جسدية، وقد تفشى في الناس أن يهربوا إثر المرض إلى الطبيب وينسوا أن الله هو الطبيب، وفي الحديث أن أعرابيًا قال للنبي–صلى الله عليه وسلم–: "أرني ظهرك إنني طبيب" ، فقال–صلى الله عليه وسلم–: ((أَنْتَ رَفِيقٌ، وَاللهُ الطَّبِيبُ))[1] أنت سترفق بي؛ لكن الذي سيطببني حقًا هو الله–عزَّ وجلَّ–، وهذا لا يعني عدم الذهاب للطبيب؛ لكنه يعني أن نقطع من قلوبنا قوة التعلق بغير الله.

(1) رواه أحمد في مسنده، وإسناده صحيح.

نحن في مثل هذه اللقاءات نتعلم عن صفة الله، ثم يكون واجبكم تجاه نفوسكم أن تعالجوا بهذا العلم ما هو واقع فيها من تعلق بغيره، ونحن لن نتعدى النصوص أبدًا، بل سنكتشف أننا في حياتنا شاردون عن النصوص، بعيدون عنها، وصل عندنا التعلق بغير الله حدَّه الأعلى دون أن نشعر؛ ولهذا من الواجب اليوم أن نتكلم عن هذا الاسم العظيم بسبب كثرة الأمراض مع كثرة التعلق بغير الله.

- **السبب الثاني: غياب أو ضعف مفهوم أن الله تعالى كما يشفي الأبدان يشفي القلوب:**

مشكلة أمراض القلوب مشكلة كبيرة تؤثر على حياتنا كلها، ومع ذلك فقد يغيب حتى على مَن يتعلق بالله في طلب الشفاء أن الشافي-سبحانه وتعالى-كما يشفي الأبدان فإنه تعالى يشفي القلوب من أمراضها؛ ولهذا سنلفت النظر إلى فهم دقيق في حديث: ((أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ، فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ))[1] وهي القلب.

ما معنى أن الجسد يصلح إذا صلح القلب؟ الجواب من شقين:

-إذا صلح القلب تصلُح العبادات القلبية والجارحية.

-إذا صلح القلب معنويًا صلح البدن حسيًا.

فكثير من الأمراض البدنية ما هي إلا آثار لأمراض نفسية، الأمراض الثلاثية المشهورة: (الضغط والسكر والكوليسترول) غالبًا يصاب الناس بهذه الأمراض بسبب ضغوط على القلب، (حالة نفسية)، وعلى هذا فإنه إذا صلح القلب صلح الجسد معنويًا وحسيًا.

(1) متفق عليه، رواه البخاري، كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه / حديث رقم 52، ومسلم في المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم 1599.

مواطن ورود اسم الشافي:

قبل دراسة أي اسم لابد من الدليل على أنه اسم، فإذا وجد الدليل انتقلنا للاعتقاد.

لم يرد في القرآن اسم الشافي، إلا أنه قد ورد بصيغة الفعل في قوله تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[1] وهذا كلام إبراهيم-عليه السلام-وهو يحاجّ قومه، فقد ذكر خمسة أمور تدور عليها الحياة كلها، وسنعرج عليها أثناء الكلام.

وروده في السنَّة: ورد ذكر اسم الله (الشافي) في السنَّة، من ذلك حديث عائشة-رضي الله عنها-أن الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-إذا أتى مريضًا أو أُتي به إليه قال-صلى الله عليه وسلم-: ((**رب الناس أذهب الباس اشفه وأنت الشافي لاشفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما**))[2] فهذا الدليل دلّ أن (الشافي) اسم لله-عزَّ وجلَّ-.

المعنى اللغوي لاسم الشافي:

قال ابن منظور في لسان العرب: "الشِّفَاء: دواءٌ معروفٌ، وَهُوَ مَا يُبرئُ مِنَ السَّقَم، والجمعُ أَشْفِيَةٌ، وأَشَافٍ جمعُ الجمع، وَالْفِعْلُ شَفاه اللَّهُ مِنْ مَرَضِهِ شِفاءً-ممدودٌ-واسْتَشْفَى فلانٌ: طلبَ الشِّفاء".

إذًا؛ الشفاء هو أن يبرأ الإنسان من المرض.

المعنى في حق الله-عزَّ وجلَّ-: (الشافي): أي الذي منه الشفاء: شفاء الصدور مِن الشُّبه والشكوك والحسد والحقد وغير ذلك من أمراض القلوب، وشفاء الأبدان من الأسقام والآفات، ولا يقدر على ذلك غيره، فلا شفاء إلا شفاؤه، ولا شافٍ إلا هو. {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}.

(1) [سورة الشعراء: 180]

(2) رواه مسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب استحباب رقية المريض، 2191)

فمن فَهمنا لاسم الله الشافي نعلم أنه–سبحانه وتعالى–:

1–هو الذي يُهيئ أسباب الشفاء؛ فكل سبب شفاء وضعه الله–عزَّ وجلَّ–في الأرض إنما هو هبة منه؛ انتفع به من انتفع وغفل عنه من غفل، فالله–عزَّ وجلَّ–أنزل أمراضًا على الخلق وأنزل معها أدويتها التي هي سبب للشفاء، فهذه الأدوية جميعًا بدون استثناء–طبيعية أو كيميائية–لم يسخرها إلا الله–عزَّ وجلَّ–، وهذه قاعدة عامة لا تخص الشفاء وحده؛ فكل الأسباب لم يخلقها إلا الله تعالى.

2–وهو الذي ييسر الأخذ بأسباب الشفاء.

3–وهو في الحقيقة الذي ينفع بالسبب؛ فيجعل الشفاء يسري في البدن.

ولندخل بالكلام عن الأسباب:

هناك عدة أمور في موضوع الأسباب:

أولًا: الأسباب أعظم الاختبارات التي يعيشها الخلق:

ولكي نفهم اختبار الأسباب نتصور الأمر بهذه الطريقة: أنت تقف في مكانك، وقد قدر لك عطاء من الله يقف في مكان قريب منك، لكن الله تعالى قدر أن هذا العطاء سيأتيك عن طريق سبب ما؛ فهذا السبب سيكون بمثابة الجدار بينك وبين عطاء الله تعالى؛ فإن كان جدارًا سميكًا ثخينًا سيحجز عنك رؤية أن الله–عزَّ وجلَّ–هو الذي يعطيك (وهذا يحصل

حين يقف بصرك على السبب ولا يتجاوزه تفكيرك)، وإن كان هذا الجدار رقيقًا شفافًا فلن يحجز عنك رؤية أن الله هو الذي يعطيك (وهذا يحصل حين ترمي ببصرك خلف السبب وتعود بتفكيرك إلى مسببه).

وهذا الكلام خاطب به النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-ابن عباس وهو فتى لم يناهز الحلم، قال له: **((وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ**-وهذا يمثل الأسباب كلها- **لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ**-مكتوب وراء الأسباب-**وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ-عزَّ وجلَّ-عَلَيْكَ))**[1].

إذًا: وأنت في الحياة لا تنسَ أنك مفتون مختبر بالأسباب: **((تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا))**[2]، دائمًا نحن مفتونون، وأحد أعظم الفتن التي فُتِنّا بها هي فتنة الأسباب، **خصوصًا لو تملكناها**، يعني الأسباب بنفسها فتنة، ولو تملكها الناس زادت الفتنة؛ حيث يحصل الاستغناء عن الله بعطايا الله!

نضرب أمثلة على ذلك:

-عندي ضيوف وطعامي غير كاف، وأنا أعرف أن قول: (بسم الله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار) سبب لنزول البركات، فأقول؛ فتنزل البركة ويكفي طعامي الجميع، وفي المرة التالية يكون طعامي كثيرًا؛ فأغفل عن دعاء الله!

ما الذي حصل هنا؟ رزقني؛ فاستغنيت برزقه عنه!!

-ومثل ذلك قل وقت دخولك للاختبار وأنت لست مستعدًا له كما ينبغي، فتقول: بسم الله، وتوكلت على الله، وتدعو بما في قلبك، وحين تكون مستعدًّا لا تسمي الله ولا تدعوه!

-ومثله حال شاب يقود سيارته لأول مرة، فتجده يستعين بالله ويذكره بكل الأدعية طلبًا للأمان! ثم ما إن يجيد القيادة حتى يستغني بخبرته عن الله!

(1) رواه الترمذي في صحيحه (2516) وصححه الألباني.

(2) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب الإيمان، بَابُ بَيَانِ أَنَّ الْإِسْلَامِ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا، وَأَنَّهُ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ، 231)

هذه كلها أمثلة على الرسوب في الاختبار الذي وضعه الله لنا في هذه الأرض؛ منعك من السبب فاتجهت له، أعطاك السبب فاستغنيت عنه، تستغني عنه بماذا؟ بما أعطاك إياه!

وعلى هذا قِس كل الحياة: أول ما يمكِّنك من عطائه تستغني عنه!

الاستغناء مصيبة عظيمة، وحين نتكلم عنها فإننا نقرنها بالترف: **{أن رآه استغنى}**؛ فما إن نجد مالًا وصحة وأولادًا إلا ونظن أن هؤلاء يغنوننا عن الله، ثم الله-عزَّ وجلَّ-يعاملنا بستره وحلمه؛ فنزداد غرورًا.

اختبار الأسباب من أكثر الاختبارات تكرارًا علينا، طوال الليل والنهار نحتاج الرزق وحين يرزقنا الله نستغني عنه، نحتاج الجبر وحين يجبرنا الله نستغني عنه، وهكذا يتكرر السؤال طوال الوقت.

لا تتصور أبدا أن الأسباب تغنيك عن الله، وكلما أغنتك الأسباب عن الله ابتليت بنقص جديد، ومن ذلك التطبب، فلو تأملت حال الواقع لرأيت أن العلم يزداد دقةً وتطورًا، ويُمكِّن الأطباء بالمزيد من الأدوات والخيارات؛ ورغم هذا فإن الأمراض تنتشر أكثر وتتنوع أكثر ويزداد خطرها، وكأنه يقال لنا: استغنيتم عن الله بالأسباب؟ فخذوا من هذه الأمراض لتعلموا أن الله هو النافع الضار!

لو أضرب مثلًا بمرض السرطان-نسأل الله أن يحفظ الجميع-وهو عبارة عن نشاط خلايا ضدية-أي ضد البدن-مَن الذي جعله بهذه الخطورة بحيث تغدو كل محاولات البشر-من أبحاث وأدوات-لا حيلة لها في كشف هذا الضر؟! هذا لتعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-على كل شيء قدير، فليس من مصلحتك أن تحارب المرض بسلاحك الذي في يدك، بل المصلحة هي أنه إذا أصابك المرض أن تزداد لله فقرًا وذلًا ومراجعة لنفسك في خطراتها واعتقاداتها، وتعلم أن الذي ابتلانا بها هو الذي سيأمر هذه الخلايا بالتوقف عن هذا النشاط.

إذا فهمت المسألة بهذه الصورة فبمن سيتعلق قلبك؟ بالذي يأمرها أن تتوقف، ثم الذي يأمرها أن تتوقف جعل لذلك أسبابًا؛ فتُظهر له حاجتك وتطلب منه أن يعطيك وييسر لك

أسباب الشفاء، لا أن تستغني عنه بها، إذا استغنيت عنه بالأسباب تكون قد عرضت نفسك للابتلاء بما لا يستطيع الخلق كشفه عنك، ولا تستطيع الأسباب إبعاده عنك!

المشكلة تكمن في ضعف الإيمان أو قوته؛ فكلما زاد الإيمان صح السير في طريق التعامل مع الأسباب، واتجه القلب أكثر للأخذ بالسبب الشرعي الذي هو بدوره سبب لزيادة الإيمان–مع كونه سببًا للأجر وانشراح الصدر، بعكس الأدوية التي أحد أثارها الجانبية هو الاكتئاب–.

ثانيًا: لابد أن تتعلم من أسماء الله وصفاته ما يعينك على التعامل مع الأسباب:

إياك أن تظن أنه من الأفضل ترك الأخذ بالأسباب نهائيًا؛ فالأسباب اختبار لابد أن تدخله؛ لأن عدم دخولك فيه يؤدي للرسوب أيضًا، فلا تملك إلا أن تؤدي هذا الاختبار، ولكي تحسن في أدائه عليك أن تتعلم من أسماء الله ما يعينك على ذلك، ومن أوائل الأسماء التي تتعلق بمسألة الأسباب اسمي: (الأول والآخر)، فلا بد من العناية بفهمهما:

اسم (الأول) وعلاقته بتعاملنا مع الأسباب:

اسم الله الأول معناه كما أخبرنا–النبي صلى الله عليه وسلم–: **((أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء))**[1].

الأول السابق لكل شيء، وعلى هذا؛ فالأسباب كلها من تمام فضله، هو الذي يعطيها كلها، وقد روى البخاري حديث النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–: **((كان الله ولم يكن شيء، وكان عرشه على الماء))**[2]، كان الله ولم يكن شيء، ثم هو–سبحانه وتعالى–الذي خلق الأرض، وهو الذي دحاها، وهو الذي جعل فيها ماءها ومرعاها، إذًا هو الذي خلق الأسباب، وهو الذي ينفع بها، فإذا فهمت اسم الله (الأول) يصبح كل ما تريده يحملك إلى الله، كل شيء يجعلك تفزع إليه ليعطيك إياه، ثم عندما يعطيك السبب تفزع إليه ليعطيك مفتاحه فتنتفع به؛ لأن السبب له مفتاح، ومفتاحه أن ينفعك الله به.

(1) أخرجه أبو داود (5051)، والترمذي (3481)، وابن ماجه (3831)، وأحمد (8947)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7668)باختلاف يسير، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (1212) واللفظ له.
(2) رواه البخاري في صحيحه (كتاب التوحيد، باب {وكان عرشه على الماء} [هود: 7]، 7418)

الله–عزَّ وجلَّ–ضرب لنا أربعة أمثلة يجب أن ننتبه لها ونضعها بمثابة الأمثال للقاعدة، سندرس مثالًا واحدًا من الأربعة:

يقول الله–سبحانه وتعالى–: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1] ما جوابكم؟ ما نحرثه هل نحن نزرعه أم الله يُخرجه؟

نحلل المسألة لنصل إلى الجواب:

نرى أسباب الزراعة: الزراعة عبارة عن اجتماع عوامل على وضع معين، وهي: التربة، الشمس، الماء، الهواء، البذرة، حول وقوَّة الزارع.

ضع أمام كل واحدة منها سؤالًا:

- من رزقك البذرة؟ من أين أتت أول بذرة؟ من عند الله، ثم بذرة بعد بذرة كلها من عند الله.
- الأرض الخصبة من يصلحها للإنبات؟ الله!
- الماء من ينزله من السماء؟ الله!
- الشمس من يأذن لها أن تشرق، وتجود بمنافعها للناس؟ الله! لا تشرق عليك حتى تسجد عند عرشه تستأذنه للشروق؛ فيأذن، ولولا أنه يأذن ما أشرقت!
- ثم المزارع من يعطيه الحول والقوة ليحرث ويبذر ويسقي ويعتني؟ يحَرَثَ الأرض بحول من الله وبقوة من الله، مع أنه لم يطلب الحول والقوة؛ لكن الله منّان يعطي النوال قبل السؤال!
- ثم إن وضع البذرة في بطن الأرض، وسقاها بالماء، وأرسلت إليها الشمس آشعتها؛ فمن ذا الذي يمد يده ويفلقها إن لم يفلقها الله؟!

(1) [سورة الواقعة: 63]

الله فالق الحب والنوى!

- ثم لو فلقها الله وخرجت تطل برأسها وتتلفت إلى النور، وارتفع ساقها في السماء، وتطلعت زهرتها إلى اللقاح، ولم يرسل الله لها اللقاح؛ فمن ذا الذي يستطيع إخراج ثمرتها؟!

الآن أجب على سؤال الله: {أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}[1]؟!

انتهى الأمر! هو سبحانه فالق الحب والنوى، وهو مخرج الثمرات.

هذه قاعدة عامة، طبقها على النار، وعلى الماء الذي تشربه.

إنضاج طعامك بالنار، لا تظن أنك طبخت وأطعمت بحولك وقوتك، إنما الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي هيأ الأسباب وجمعها ونفع بها؛ لذلك قال تعالى في الحديث القدسيّ:

((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ))[2] يعني اطلبوا مني الطعام أيسّر لكم أسبابه، ثم أنفعكم بها، ثم تأكلون من آثار عطائي لا من آثار قدرتكم.

انظر إلى ذي القرنين حين قال الله-عزَّ وجلَّ-في موضوع الأسباب: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا} فالله-عزَّ وجلَّ-هو الذي آتاه الأسباب، وماذا فعل هو؟ {فَأَتْبَعَ سَبَبًا}[3] يعني بعد أن يناولك الله السبب يقال لك: اذهب أنت فاتبع السبب، فلست أنت من يخلق السبب، واعلم وأنت تتبعه أنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله، فهو سبحانه الذي يعطيك الحول والقوة، فلا تسمع عن الله أنه الشافي وأنه إذا مسَّك بضر لا يكشفه إلا هو ثم تقول: والأسباب؟! فأنت إذا توكلت على الله فقد طرقت باب من يملك الأسباب ليسر لك الأسباب.

(1) [سورة الواقعة: 64]

(2) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، 2577)

(3) [سورة الكهف: 84]

اسم (الآخر) وعلاقته بتعاملنا مع الأسباب:

اسم الآخر معناه كما أخبرنا النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: الذي ليس بعده شيء، فمبدأ الأسباب منه سبحانه لأنه الأول، والنتائج والثمرات في حقيقتها منه-سبحانه وتعالى-لأنه الآخر؛ لهذا تطلب منه-سبحانه وتعالى-باسمه (الآخر) أن يعطيك الثمرات لهذا العمل الذي تعمله، وهذه قاعدة عامة لا تخص الشفاء فقط؛ إنما كل حال كمال لديك فإن الذي جعلها تكمل هو الله؛ لأنه-سبحانه وتعالى-وضع أسبابها، ولأنه نفع بأسبابها.

ثم اعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-جعل الأسباب مبشرات بين يدي رحمته-عزَّ وجلَّ-فإن الله تعالى إذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابَه، ومن رحمته-سبحانه وتعالى-أن يناولك هذه الأسباب؛ ويشرح صدرك فتأخذها؛ فيعطيك العطاء؛ ولهذا إن رأيت الأسباب فإنها تبشرك بالنتائج بإذن الله.

ولنضرب مثلًا على ذلك:

(السحاب) سبب من أسباب المطر يسوقه الله مبشرًا لخلقه بنزول المطر، ووراء المطر سقيا، ووراء السقيا إنبات للشجر[1].

(1) لكن ليس شرطًا أن توجد النتيجة إذا وُجد السبب، فأحيانًا يأتي السحاب ولا يشاء الله-عزَّ وجلَّ-أن ينشئ منه مطرًا، فنقول عن هذا الموقف: جاءت الأسباب ولم تقع آثارها، لم ينتفع بها.

ومثل ذلك خبر الملائكة مع الصحابة في غزوة بدر، جند الله من الملائكة التي تنزلت يوم بدر لتقاتل مع الصحابة، ماذا قال الله-عزَّ وجلَّ-في حقها؟ **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ}** نزولها بشرى، يعني: خلق الله لكم الأسباب لتطمئنكم، ولما رأيتموها اطمأنت قلوبكم، لكن ليست الملائكة هي مَن نصركم، بالرغم من أنهم ملائكة من السماء، لكن **{وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}**[1]، في الحقيقة ليست دراستك التي أنجحتك، دراستك ما هي إلا بشرى، وما أنجحك إلا الله: **{وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}**. هو يعطيك الأسباب وهو ينفعك بها، فلاتظن أنها هي التي تأتي بالثمرة أو النتيجة؛ إنما هي مبشرات بين يدي رحمته، وعلى ذلك قِس كل شيء: إذا زارك طبيب أو ذهبت إليه فهي مجرد بشرى؛ فلا يكن قلبك معلقًا به أبدًا؛ إنما قل: **جعله الله بشرى للتطبب**، والله-عزَّ وجلَّ-إذا جعل هذا بشرى فيكون إشارة إلى الشفاء، فتذهب إليه وقلبك معلق بالله أن يُجري على يديه الشفاء.

ولا بد أن نعرف أن الأسباب ليست ضد قدر الله، بل هي من قدر الله؛ لذلك لابد من التوحيد، ومن المواطن التي تبحث عن توحيدك فيها موطن مس الضر (والدنيا ليس فيها ضر على حقيقته؛ إنما كل شيء هنا ذوق، مَس فقط، والضر الحقيقي والألم الحقيقي هناك حين يعاقب المجرمون، نسأل الله-عزَّ وجلَّ-أن يجعلنا من أهل النعيم).

كيف توحّد الله حين يمسك الضر؟

تطرد عن خاطرك كل مفزع: هذا لا ينفعني، وهذا لا ينفعني، لا ينفعني إلا الله، هذا هو التوحيد، أن تكون واحدًا في الأرض لواحدٍ في السماء، والأسباب ملك لهذا الواحد، فتفزع أول ما يمسك الضر إليه، كلما وقع لك الضر في صغيرة أو كبيرة لا تخطئ بانتقال قلبك إلى السبب المتوفر حولك قبل أن تطرق باب صاحب السبب؛ فإذا فزعت إليه-وأمره كن فيكون-؛ هيأ لك من الأسباب ما لا يخطر لك على بال، أتظن أن الأسباب تسبق الله؟ الله-عزَّ وجلَّ-هو الأول الذي يسبق ويملك الأسباب، فهلّا طرقت باب مالك الأسباب أولًا لأجل أن يعطيك الأسباب؟ ما بال الأسباب تضخمت حتى ظننا أننا مالكوها؟

(1) [سورة الأنفال: 7]

الأسباب مغلقة بمفتاح لا تنفعك إلا إذا فتحت بمفتاحها، هل كل طبيب يذهب إليه الناس ينتفعون منه جميعًا نفس الانتفاع؟ لا؛ لأن الطبيب سبب وله مفتاح، ما مفتاحه؟ أن تفزع إلى الله، حين تفزع إلى الله يسدده الله أن يكتب ما ينفعك، وطالما قلبك معتمد عليه فقد أتيت بالخذلان له ولنفسك، يخذل الأطباء في تشخيصاتهم بسببنا، ندخل عليه وقلوبنا متعلقة به؛ فيكون الجزاء أن لا يوفق، وها نحن نرى الأخطاء الطبية على مستوى العالم رغم تقدم الطب لنفهم أنه مهما تضخمت الأسباب فإن الله-عزَّ وجلَّ-وحده الذي ينفع بها، فلا تستغنِ بالأسباب التي بين يديك عن الله، ولكي تتصور الأمر انظر إلى مشاعر المريض الذي جرب الأطباء هنا وهناك ولم يستفد كيف سيكون شعوره وهو ذاهب الآن للطبيب العاشر؟

سيبقى طوال الطريق يقول: يا رب! وفقه في علاجي، يا رب يسر أمري، ثم أول ما يدخل للطبيب ويرتاح لأسلوبه ويأخذ الدواء ويبدأ بالتحسن ينسى الله، أو تنخفض حرارة (يا رب) في قلبه، وتبدأ المشاعر تتجه نحو الطبيب، ويتحول الدعاء طوال الطريق إلى أن لا يكون عند الطبيب زحام، وكأن هذا الطبيب أصبح قبلة الآمال بعد أن كانت الآمال معلقة بالله وحده صارت المشكلة في الزحمة التي تحول بينك وبين الطبيب وليست في التفات القلب إليه وتعلق النفس بالنفع الذي أجراه الله على يديه. شتان بين الزيارتين!

أرأيتم كيف تميل نفوسنا؟ هذا هو الخطأ، يجب أن يكون في قلبك أن الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي سيسدده، أو بالعكس هو الذي يخذله فلا يوفق؛ ولذلك يقول النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: **((من ضعف اليقين أن تحمد الناس على ما آتاك الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله إن رزق الله لا يجره حرصُ حريص ولا يرده كرهُ كاره))**[1].

هناك فرق بين الحمد والشكر، الشكر يكون باللسان، أما الحمد فيعني أن يمتلئ قلبك بالثناء عليهم، وهذا من ضعف اليقين، فالمطلوب أن تشكرهم بلسانك ولكن حمد قلبك لله تعالى، وتعلقه به وحده؛ ولهذا يطلب منك أن تدخل على هذا الطبيب وقلبك منقطع عنه، بل أحسن تعبير يقال في هذا: أن تدخل عليه وأنت يائس منه ورجاؤك كله في الله أن يجعل على يديه الشفاء.

(1) رواه أبو نعيم والبيهقي، وضعّفه الألباني.

هذا لو أردت أن يوفق الطبيب إلى تشخيص الدواء، وإلى أن يجري على يديه الشفاء، أما إن ذهبت إلى طبيب هو بنفسه صاحب قلب مريض يقول لك: أنا الوحيد في الشرق الأوسط الذي أفهم في هذا المرض فلو ذهبت لغيري لن تستفيد، لا أحد غيري عنده قدرة على هذه العملية–وكل واحد يدعي أنه الوحيد في الشرق الأوسط، ولا أحد يعلم صدق هذه الدعوى، إنما نصدقها ويصبح هذا الكلام مثل الوهم الكبير، وهذا نوع من أنواع السيطرة، وهذا الصنف من الناس موجود، ويعاملهم الله–عزَّ وجلَّ–بمكره فيعطيهم ويعطيهم–فماذا تفعل هنا؟

انتبه لقلبك ماذا يشعر تجاهه، خصوصًا أن المريض وهو يتألم يكون في حالة ضعف شديد؛ فلابد أن تعرف أن ميلك القلبي نحوه بأن تظن بأنه خير طبيب خطر عليك؛ ولهذا: ما إن تسمعه يقول لك: "لن تجد مثلي وليس هناك غيري في الشرق الأوسط" أو ما شابه فقل على الفور: بل ليس هناك إلا الله–عزَّ وجلَّ–، وهو مالك الشفاء يجريه على يدك أو يد غيرك، فالأمر أمره.

هذا الكلام لا يفهمه إلا من يعرف الله، وهذا الكلام للأسف بدأ يغرق في عالم الماديات، وأصبح الناس بسبب ضعف العلم عن الله حين تكلمهم به يرون أنك تفكر بطريقة غير منطقية، ويحاجّون أهل الإيمان الذين يعرفون الرحمن ويسخرون منهم قائلين: أنتم لازلتم تفكرون بهذه الطريقة وتطلبون من الله؟! يسألونك ماذا فعلت بشأن كذا؟ فترد قائلا: توكلت على الله؛ فيستهزئ بإيمانك، وتجد نفسك ضعيفًا أمام استهزائه! وهذا خلل كبير؛ فلابد أن تكون القوي بما تعتقده، ولا يحصل ذلك إلا إن ثبَّتَّ فيك هذا الاعتقاد، فلا بد أن يبقى اعتقادك ثابتًا واضحًا ليس فيه أي خلل[1].

(1) قد يقال هنا أن هناك خلق كثيرون لا يعرفون الله ولا يعرفون أسماءه وصفاته ومع ذلك يأخذون الأدوية فتنفعهم؟ نقول: نعم، هذا الذي غرَّ الخلق بربهم: أنه–سبحانه وتعالى–يعامل بعض الخلق بوده، فيمدهم بأسباب يعيشون بسببها في استقرار، يمرضهم ثم يكشف عنهم المرض لعلَّهم إليه يعودون، وبعضهم يعاملهم سبحانه بحلمه؛ فلا يمنعهم بذنوبهم عطاياه، ولا يعاجلهم بالعقوبة لعلَّهم يتوبون، وبعضهم يكون سبحانه قد عاملهم بالحلم والود ولازالوا على حالهم قد أغلقت قلوبهم؛ فإنه سبحانه يعاملهم بعدها بالاستدراج، يمدهم بكل خير وهم عنه معرضون؛ فيزيد لهم في الدنيا.إذاً؛ معاملة الله–عزَّ وجلَّ–للخلق مختلفة.

ومن المهم هنا أن تعي أن كل هذه التقلبات التي تعيشها ستذهب في الجنة؛ لأن الاختبار انتهى، أنت هنا في الدنيا تتعرض إلى مثل هذه النقائص، والله ينظر إلى قلبك بمن تتعلق؟ تتعلق به أو تتعلق بالأسباب التي ناولك إياها؟ فاختبارنا العظيم هو الأسباب، وقد أخبرنا أننا وجدنا في الدنيا للاختبار، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا}[1] وأخبرنا في سورة الكهف أنه سبحانه جعل ما على الأرض زينة لها، لماذا؟ كل هذا اختبارات، وإلا فإن الله قادرٌ على أن يكشف عنك الضر؛ بل قادر على أن لا يبتليك أصلًا بالضر، لكنه يبتليك بالضر ليختبرك ترضى عنه أم تسخط، ليختبرك بمن ستتعلق؟ به أم بالأسباب، لكن مع التشتت والبعد عن الله–عزَّ وجلَّ–نرى آثار الشقاء في حياة الخلق، وطبعًا المشكلة واحدة وهي: أننا لا نعرف الله؛ ولهذا استبدلنا كامل الصفات بالناقصين، واعلم أنك حين تتعلق بالناقص وتقع في قلبك قوة الاعتماد عليه يكون جزاؤك أن الله يؤدبك بهؤلاء الناقصين؛ فهذا ناقص ينام ويتركك، وهذا ناقص ينساك، وهذا ناقص يهملك، وهذا ناقص يمسي يحبك ثم ينقلب قلبه فيصبح لا يحبك، بل يصبح سببًا لشقائك بعد أن كان سببًا في هنائك، لا تعذب نفسك، تعلق بالحي الذي لا يموت، وهو كامل الصفات، بل من أعظم صفاته أنه ودود يحب عباده، ومن آثار حبه لعباده أن أسجد الملائكة العظام لأبيهم، وأن الملائكة–حملة العرش–تتقرب إلى الله باستغفارها للذين آمنوا؛ لأنها تعلم مكانة المؤمنين عند الله–عزَّ وجلَّ–، فكيف يودك الله وأنت لا تُقبل عليه؟ كيف؟، هذا يكون بسبب الجهل به–سبحانه وتعالى–وأننا ما قدرناه حق قدرَه!

لو وضعنا أمامنا آية: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ}[2] **لصلحت حياتنا ولعرفنا قيمة التوحيد** ولعرفنا معنى أن الله يريد منا أن نعيش في الأرض مختلطين بالخلق؛ لكن قلوبنا مع واحد تطوف حول رضاه، وتسعى من أجل هذا الرضا.

هذا الواحد حياتك كلها تدور في فلكه، أرأيت إلى الطواف بالكعبة والسعي في المسعى؟ كذلك أنت في الحياة: تطوف وتسعى ببدنك وقلبك طوال الوقت يطوف ويسعى حول رضا الله! ولو نظرت إلى الطواف والسعي تجد كثيرًا من الناس يطوفون ويسعون لاهين بلا قلوب، وأحيانًا يستطيع الإنسان أن يجمع قلبه قليلًا في الطواف وقليلًا في السعي، وهكذا الحال في الدنيا؛ قليلًا ما يجمع الناس قلوبهم حول ربهم.

(1) [سورة الملك: 1-2]
(2) [سورة هود: 107]

قال تعالى: **(ومن أراد الأخرة وسعى لها سعيها)**[1] ما هو سعيها؟ سعيها هو صلاتك، وصيامك، وتسبيحك، وذكرك، فهذا السعي في الحياة يشبه السعي في المسعى، المفترض أن تسعى وقلبك يطوف حول رضا واحد، وحينما تكون واحدًا في الأرض لواحدٍ في السماء؛ فإنه يكفيك كل ما أهمك تمامًا، حين تصبح موحدًا يأتي الله بهذا إليك، وييسر أن تذهب بكل يسر إلى ذاك، وكلما ضعف التوحيد تعقدت الحياة، فتبدأ تتخبط لا تدري أين تجد مصالحك، يوم تترجى هذا ويوم تتوسل إلى ذاك، وكثيرًا ما تكون مقبلًا على شأنك وتقنع نفسك طوال الوقت أن هذا لن يأخذ أكثر من عشر دقائق في الدائرة الفلانية، وتزداد ثقتك بالخلق؛ فعندك فلان يتوسط لك، فإذا ذهبت إليه لم تجده، فتذهب لغيره فيعتذر، فإذا بالعمل الذي كان ينبغي أن يقضى في دقائق معدودات استغرق منك أيامًا تربية من الله لك كي لا تتعلق بغيره، تتعلق بالله يسخر لك الخلق، تتعلق بغيره يصرف الله عنك من كان عليك مقبلًا، فيحسُن بك أن تتوكل على الحي الذي لا يموت كما طلب منك ربك في كتابه: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ}**[2]، كل أحد غير الله إما أن يموت موتةً كبرى أو يموت موتةً صغرى، وكم من أمٍّ كانت سببًا في وفاة رضيعها برغم شفقتها عليه؛ لأنها لما ماتت موتةً صغرى-نامت-انقلبت عليه! وكم من مريض اعتمد على أنه إن احتاج غيره في الليل سيوقظه، ثم يموت ولم يشعر به من اعتمد عليه؟! لذلك لا تتوكل على من يموت، توكل على الحي الذي لا يموت، وهذا يجعلك تعيش مستمتعًا بالتوحيد، يقول الله-عزَّ وجلَّ-في سورة هود بعد أن أمرنا بالتوحيد والاستغفار والتوبة: **{يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}**[3] أي: عِش موحدًا، اعبد الله ولا تشرك به شيئا، لا تتعلق بغيره، لا تتوكل على غيره، وأكثر من التوبة والاستغفار؛ ترَ كيف يمتعك الله في الحياة متاعًا حسنًا!

وإياك أن تظن أن التوكل عليه معناه ترك الأسباب؛ بل على العكس: التوكل عليه ينظم الأخذ بالأسباب، **ويتضح ذلك بهذا التفصيل عن التوكل:**

التوكل على الله في الشفاء له نفس قاعدة التوكل على الله في أي شيء؛ لهذا سنشرح قضية التوكل على الله في الشفاء وعليها يقاس التوكل في أي أمر:

التوكل على الله في الشفاء فيه ثلاثة أمور:

(1) [سورة الإسراء: 19]
(2) [سورة الفرقان: 58]
(3) [سورة هود: 3]

1-: **تتوكل على الشافي-سبحانه وتعالى-أن يهيئ لك الأسباب**: فبمجرَّد أن تشعر بالمرض تحتاج إلى فعل اسمه (الفزع إلى الله)؛ لأن أول لحظة تلقِّي المرض تدور قلوبنا تبحث عمن يكشف عنها الهم، وهنا يظهر التوحيد، فأول لحظة اصطدامك بالمرض إلى أين سيتجه قلبك؟ الكلام الآن عن القلب وليس عن البدن، فإن كان اتجاه قلبك المباشر إلى الدواء أو الطبيب فهذا رسوب من أول الاختبار؛ لأن الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم-كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فالصلاة وقوف بين يدي الله، وهي الدرجة العليا في الفزع إلى الله، والدرجة الأقل منها أن تكتفي بأن يتحرك قلبك إلى الله ولا تتحرك إلى أي شيء آخر قبله.

لا تقل في تلك اللحظة: أريد أن أسافر أو أحتاج أن أعرض نفسي على الطبيب الفلاني في مستشفى كذا، لاحظتم هذه الحركة؟ هذه حركة الرسوب، والنجاح: أن تكون أول فزعتك إلى الله، هذا أول النجاح، أول ما تشعر بألم أو تخبَر بمرض عندك أو عند أولادك أو أي أحد عزيز عليك يحصل في قلبك الفزع إلى الله، والفزع: هو أول شيء يخطر في بالك أن فيه حل لمشكلة تعيشها، فزعتك إلى الله هي بداية التوكل، ماذا تقول لله؟

تقول له بقلبك: أنا أعتقد أنك أنت الذي تملك كل الأسباب ولا أحد يملكها إلا أنت، وأعتقد أنك ابتليتني بهذا المرض من أجل أن ترى هل أتعلق بك أو أتعلق بغيرك، وها أنا أتعلق بك ولا أتعلق بغيرك؛ فهيئ لي السبب.

تعتمد على الله أن يقرِّب لك الأسباب لأنك مطالب بأخذ السبب، والأخذ بالسبب معناه أنها مدت لك وأنت تأخذها من صاحب الأسباب ومالكها وهو الله-عزَّ وجلَّ-، فهل تستطيع أن تأخذ شيئًا لم يُمدّ لك؟ ولهذا التوكل على الله هو رأس الأخذ بالأسباب، وهو رأس صلاح الأمر، فأنت حين تتوكل على الله كأنك تقول: أنا اعتمد عليك يا رب أن تهيئ لي أسبابًا تنفعني في هذا المرض، وأفوض أمري إليك!

هذا هو التوحيد؛ ولذلك لا بد من تعلم التوحيد بتفاصيله كما ينبغي، وعدم الانخداع بكوننا موحدين إجمالًا، فهناك الكثير ممن نقول لهم: تعالوا تعلموا التوحيد؛ فيردون مستنكرين:

الحمدلله نحن موحدون ولسنا مشركين، نقول: **الحركة الأولى للقلب وقت التقائه بأقدار الله واختباراته هي التي تبين حقيقة هذا العبد من هو في التوحيد!**

2-**الخطوة الثانية في التوكل**: إذا طلبت من الله أن يهيئ لك الأسباب فلا تتعجل؛ لأن الله يختبر صدق توكلك، **انتبه لهذه المساحة بين طلبك للأسباب وحصولك عليها؛ فبينهما اختبار ثانٍ هو الصبر على تأخير السبب عليك، وهذا اختبار لصدق واستمرار توكلك على الله، ويقينك أنه صاحب الأسباب**؛ فتنبه وتصبر ولا ترسب بعد أن قطعت شوطًا في النجاح! واعلم أن الله-عزَّ وجلَّ-خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقد كان-سبحانه وتعالى-قادرًا أن يقول لها: كوني فتكون، لكنه كما يقول أهل العلم: خلقها-سبحانه وتعالى-في ستة أيام ليعلم عباده أن أمره على مهل، وهكذا الاختبارات تأخذ وقتها، والله يعلم أننا قوم ضعفاء لا طاقة لنا بصبر أيوب، وما أبعدنا عن مقام صبره، ويعلم أننا لا نتحمل حتى الصداع، ويعلم ضعف الإيمان في قلوبنا؛ فيأتي اختباره لنا على قدر إيماننا.

إذًا؛ بين الخطوة الأولى والخطوة الثانية مسافة فلا تتعجل؛ أفْزِعُ إلى الله طالبًا أن يهيئ لي الأسباب وأنا متيقن أن الأسباب بيديه، ثم بعد ذلك أنتظر أن يسخرها لي، ولا أسمح للشيطان أن ييئسني من الشفاء مهما اتفق الأطباء أنه لا علاج لهذا المرض؛ فالأطباء لو كانوا يعلمون عن أنفسهم لاستطاعوا أن يردوا عنها المرض؛ بل يفترض أن يرفع هذا في قلبك الشعور بأنه مادام هؤلاء الذين لا يعلمون شيئًا أقروا أنه ليس بأيديهم العلاج إذًا علمتُ أين العلاج: إنه بيد الله وحده!

3-**الخطوة الثالثة في التوكل: لا تعتمد على السبب بعد أن ييسره الله لك:**

بعد أن فزعت إليه تطلب الأسباب لعلمك أن الأسباب بيديه، وصبرت منتظرًا منه الأسباب، ثم ناولك السبب؛ كيف ستتصرف مع السبب؟

أيًّا كان السبب طبيبًا أو دواءً ينبغي أن لا يحصل منك اعتماد على هذا السبب أبدًا؛ إنما تسأل من أعطاك السبب وفي لحظة حصولك عليه أن ينفعك به.

سأضرب مثالًا يوضح ذلك:

شخص اكتشف في قلبه مرض الجهل: كالشك في وعود الله مثلًا، أو في صفاته، أو أقداره، ما هو أول شيء يفعله حال اكتشافه للمرض؟

1- أن يعتمد على الله في إزالة هذا المرض من قلبه، فيقول يا رب هيئ لي الأسباب التي تجعلني من أهل اليقين.

مصيبة أن لا تكون من أهل اليقين، بلاء عظيم، ومرض حقيقي أن تجد شيئًا يجول في خاطرك عن القضاء والقدر مثلا، أو عن أي مسألة من المسائل التي لم تتعلم عنها، فالشك لا يأتي إلا من الجهل، والذي يزيل هذا الجهل هو العلم، فشفاء العيِّ السؤال كما قال الرسول-صلى الله عليه وسلم-، يعني شفاء الجاهل الذي في قلبه شك أن يسأل، أن يتعلم، وليس لمن لا يفهم المسألة أن يشك فيها أبدًا، فكيف يشك في القضاء والقدر من لا يفهم القضاء والقدر؟!

أول ما تشعر أن في قلبك شبهة جعلتك تشك في شيء من أمر الله أو في شيء من صفاته؛ فأول فعل تفعله هو أن تفزع إلى الله وتطلب منه أن يهيئ لك أسبابًا لزوال هذا المرض. (وكذلك تفعل إن وجدت في قلبك شهوة سيطرت عليك جعلتك تميل إلى الحرام).

2- ثم قد لا تُناول الأسباب مباشرة، فقد لا تجد أحدًا يعلمك أو يناقشك، قد تذهب لهذا فلا تقتنع، وتناقش ذاك فلا تقتنع، فاعلم أن هذه فترة اسمها (فترة اختبار صدق التوكل)، فلتبقَ تفزع إليه تطلب منه الأسباب.

3- ثم يقدِّر الله أن يمدَّ لك سببًا: سمعت في مكان ما عن شخص بدأ يدخل كلامه إلى قلبك، بدأت تشعر أنه يناقش المسألة بالصورة التي تقنعك، وصلت إلى السبب وبدأت تقتنع بكلامه؛ فلا تظن أنه ينفعك من دون الله، ماذا تعتقد إذًا؟ تعتقد أنه مجرد سبب، هذا الشيخ أو طالب العلم مهما كان أسلوبه مميزًا أو مقنعًا لن أنتفع بجوابه إلا إذا أراد الله-عزَّ وجلَّ-أن ينفعني.

طبيب القلب من طلبة العلم والعلماء مثله مثل طبيب البدن على حد سواء؛ كلاهما لا ينفعانك إلا إذا أذن الله، وإن تصورت أن السبب حين يصبح بين يديك سينفعك بذاته فسينتقل قلبك من الاعتماد على الله إلى الاعتماد على السبب الذي نِلته وينقطع بهذا توكلك؛ لهذا لابد أن تحافظ على إيمانك واعتمادك على الله وحده مهما كان الطبيب متمكنًا من حالتك، ومهما قال لك: هذه المرة المائة التي أعالج بها أمثال حالتك، فليكن قولك في قلبك: ولو كانت المرة المليون لو حبس الله عني الانتفاع بخبرتك فلن أنتفع بك، آمنت بالله وكفرت بكل من دونه، وهذا نقوله لأن الشيطان يعظم في قلبك الأشياء فيجعلها طواغيت على حسب نقطة ضعفك، ولكي يتضح لك فعل الشيطان معك نبين معنى الطاغوت أولًا وماذا قال الله تعالى عنه:

الطاغوت: هو كل من طغى وتجاوز حده، والله تعالى يقول: **{لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى}**[1] وفعل الشيطان معك كما يلي:

- **إن** كنت مريضًا عظّم في قلبك الطبيب حتى يجعله طاغوتًا؛ فتشعر أن كل كلمة يقولها كأنها نازلة من السماء.
- **وإن** كنت متعلقًا بأحد عظم لك هذا المحبوب حتى يجعله طاغوتًا؛ فتشعر أن الدنيا لا تساوي شيئًا من دونه.

(1) [سورة البقرة: 256]

- **وإن** كنت خائفًا من أحد–لأن عادته أن يؤذي–عظّمه في قلبك حتى يجعله طاغوتًا تُشل حركتك أمامه؛ فتقف أمام الشخص الذي تشعر أن وراءه ريبة لا تحسن قولًا ولا فعلًا وأنت اللبق المتعلم!

فالشيطان–وهو الطاغوت الأكبر–يتحسس مشاكلك ويجعلها من إحدى الكُبَر، يعظّم المرغوب فيجعله طاغوتا، ويعظّم المرهوب فيجعله طاغوتا، يعظّم الحب ويعظّم الخوف.

كيف تقاوم هذه المشاعر التي يلقيها الشيطان وقت مرضك؟

حين يقول لك الطبيب: إن هذه الحالة المائة التي ينجح في علاجها بكل يسر وسهولة وينفخ نفسه، قل: كفرت بك وآمنت بالله، ليس عندي عظيم إلا الله.

هي مرحلة حرجة جدًّا فلا تقع في فخاخها، وتذكر أن " **فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله**"[1]، **وتذكر: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))**[2]، يعني قلبك هذا مكان نظر الرب فانتبه لما يدور فيه، أول ما تشعر بألم ينظر الله–عزَّ وجلَّ–إليك هل تفزع إليه سبحانه أو تفزع إلى غيره، وإذا نجحت ففزعت إليه أولًا يبقى عليك أن تصبر إلى أن يناولك الأسباب، ثم إذا منحك سبحانه الأسباب فلا تتشبث بها؛ إنما تعلق بالله الذي ينفعك بها، فلا بد أن تكون متيقنًا أن هذا السبب لا يعمل إلا إذا أمره الله، ثم حين يشفيك الله لا بد أن تعرف أن من سحب المرض من أعضائك وأصلح تلك النقطة التي كانت تسبب لك مشكلة وأمرها أن تستقيم هو **الله تعالى**، فلو نظرنا مثلًا إلى الجلطة القلبية لرأينا أنها عبارة عن نقطة دم متجلطة بحجم رأس الدبوس، فمن الذي يجري الدم سائلًا في العادة ويمنعه من التجلط؟ الله–عزَّ وجلَّ–هو الذي يجريه، والدواء الذي تأخذه وتضعه تحت لسانك إنما جعله الله سببًا لأنه سبحانه خلق الدنيا على سنَّة الأسباب، وهكذا في كل أمر؛ فهو–سبحانه وتعالى–الذي يجري الدم في بدنك، وهو الذي يأمر القلب أن ينبض، وهو الذي يأمر الرئة أن تتنفس، وهو الذي يأمر المعدة أن تهضم...إلى آخر هذه العمليات الحيوية التي نتكلم عنها، يأمر أبدان كل الخلق فتتحرك كما يأمر، وإذا أمر هذا البدن في لحظة أن يتوقف عن الحركة فإنه لا يستطيع إلا أن يفعل ما يؤمر، وهذا لو تفكرت فيه أمر عجيب عجيب مبني على إيمانك باسمين عظمين لله–عزَّ وجلَّ–هما اسما: (الحي

(1) أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599) باختلاف يسير.

(2) رواه مسلم وأحمد وابن ماجة.

القيوم)، القائم على كل نفس بما كسبت، فلا يتحرك متحرك إلا بأمره، ولا يسكن ساكن إلا بأمره، في بدنك أو في السماوات أو في الأرض، وإلا فمتى كنت مسؤولًا عن هضم معدتك للطعام؟ متى حُمِّلت هذه المسؤولية؟ وتراك تنسب الفعل لغير فاعله تقول: هضمت معدتي الطعام، هذه المعدة من أين لها أن تهضم الطعام؟! هضم طعامك بأمره، نبض قلبك بأمره، وعلى هذا قِس كل شيء، فالله–عزَّ وجلَّ–هو الذي يأمر بذلك، وحين تفهم هذا الفهم ستحسن فهم مسألة الشفاء، ستعرف أن الله هو الذي يأمر موطن الألم بالسكون، هو الذي يأمر تلك الخلية أن تقف إن كانت تتكاثر تكاثرًا سيئًا، ويأمر ذاك العصب أن يتوقف عن الألم، ولكن الله يجعل هذا من وراء الأسباب، ولكي تحسن في اختبار السبب عليك أن تأخذه ائتمارًا بأمر الله، وأن تعلم أن ما يسري في بدنك من شفاء إنما هو بأمره سبحانه.

في نهاية الأمر لابد أن تعرف أن المرض أحد الاختبارات العظيمة، وهو أحد الأسئلة المهمة داخل الاختبار الكبير، **فهناك اختبار كبير–أكبر من المرض–هو اختبار الأسباب،** يعني الشفاء والمرض أحد النماذج التي تُختبر فيها؛ لكن المادة الكبيرة التي تختبر فيها هي الأسباب، وقد جعل الله–عزَّ وجلَّ–لكل شيء سببًا، جعل للسعادة سببًا، وجعل للأولاد سببًا، وجعل للأموال سببًا، وجعل للشبع سببًا، وجعل للرِّي سببًا، وجعل للأمن سببًا، انظر إلى قوله–عزَّ وجلَّ–لقريش: **{الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف}**، يعني أن الله سبب أسباب الطعام فأكلوا، وسبب أسباب الأمن فأمِنوا؛ ولهذا يقول–سبحانه وتعالى–في الحديث القدسي: ((يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ))[1] يعني أنه–سبحانه وتعالى–هو في الحقيقة الذي يكسوك، هو في الحقيقة الذي يهديك، هو في الحقيقة الذي يطعمك، هو في الحقيقة الذي يسقيك، وكل هذه الأسباب إنما هي في حقيقتها اختبار.

أين الاختبار هنا؟ أن سقيه وطعامه وكسوته وهدايته أتت من وراء الأسباب.

متى يظهر إيمانك؟ حين تعلم أن كل هذه العطايا إنما أتت من عند الله–عزَّ وجلَّ–، وأن الأسباب التي تعاملها إنما أنت في الحقيقة تعامل الله من ورائها.

(1) رواه مسلم في صحيحه، (كتاب البر والصلة والآداب، بَابُ تَحْرِيمِ الظُّلْمِ، 2577)

لأجل هذا حين تريد شيئًا من أحد لا تجعل حركة القلب منك إلى السبب، لا تجعل العملية تتم في الأرض منك إليه وتنتهي في الأرض منه إليك؛ إنما ارفعها منك إلى الله، ثم اعلم أن الله يأتي بها إليك، وهذا في كل شؤونك ومصالحك!

ونبين هذا بمثال بسيط بعيد عن الشفاء: تحب أن يكون ولدك صالحًا، وتتخيل دائمًا أن هذا يحصل من خلالك (منك له) مع أنك تحفظ أن: ((القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبهما كيف يشاء))[1] ، وتعلم أنك لا تملك إصلاح قلبك نفسه؛ فكيف تهبه شيئًا أنت لا تملكه لنفسك؟!

فإن استقر في قلبك أنه لن يصلحه إلا الله سيصبح الرجاء متوجهًا منك إلى الله كي يقر عينك بصلاحه، وهذا التعلق بالله سينفعك نفعًا لا يقدر بثمن؛ لأنه يجعلك من أولياء الله، يجعلك متقربًا إليه دائمًا، فتكون النتيجة أن يسددك في الموقف الذي تحتاج فيه إلى تسديد، يسددك وقت اتخاذ القرار، يسددك فتقول من الكلام ما يكون فيه صلاح هذا الولد، ثم يوقع هذا الكلام في قلبه ويشرح صدره لك؛ لكن كيف بدأت لتصل إلى هذه النتيجة؟ منك إلى الله أولًا؛ ثم من الله إليه، وهذا هو التوحيد في هذا الموقف.

ومثل هذا تمامًا علاقتنا مع الله في المرض: منا إلى الله أولًا؛ ثم الله تعالى يسبب أسباب الشفاء، ثم ينزل سبحانه الشفاء.

إن عدم معرفتنا بهذا حق المعرفة جعل الناس يتخبطون بعيدًا عن ربهم، فالأمراض بدلًا من أن تكون سببًا لرفعة المنزلة وكفارة الذنوب أصبحت سببًا للتعلق بغير الله-عزَّ وجلَّ-؛ فأصبح ذلك مزيد بلاء علينا في حين أن المرض نعمة مقربةٌ من الله؛ تمرض فترتفع درجاتك، تمرض فتصبح وليًا لله، تمرض فتمشي على الأرض وما عليك خطيئة كما ورد في النصوص أن المريض يُبتلى بالمرض فيغفر له ذنبه حتى يسير على الأرض وما عليه خطيئة، تمرض ليكون الله معك-كما ورد في الحديث القدسي: قَالَ رَسُولُ اللهِ-صلَّى الله عليه وسلَّم-: إِنَّ اللهَ-عزَّ وجلَّ-يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ((يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ،

(1) أخرجه الترمذي (2140) واللفظ له، وأحمد (13696) باختلاف يسير، وابن ماجه (3834) بنحوه.

أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟))[1] يعني من منافع المرض أن يكون الله-عزَّ وجلَّ-معك، وهذا شرف عظيم لو تسنى للإنسان أن يتعلق بالله وقت مرضه، وأيضًا من منافع المرض أن تجده قد رفع درجاتك يوم القيامة بسبب الرضا عن الله-عزَّ وجلَّ-فيه، ولا تنس أن الله قادر على أن لا يصيبك بالمرض، قادر أن يحميك تمام الحماية؛ لكن من قال أن مصلحتك في أن تُحمى؟! هكذا خلقت الدنيا مكانًا للاختبارات.

نناقش الآن مسألتين:

1-أنواع الأمراض وانقسامها إلى أمراض قلبية وأمراض بدنية.

2-أسباب الشفاء وانقسامها إلى أسباب شرعية وأسباب كونية.

أولا: أنواع الأمراض:

هناك نوعان من الأمراض نطلب الشفاء منها: قلبية و بدنية:

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، 2569)

نبدأ بالأصعب وهي القلبية، ومثالها: الحسد، الحقد، العجب، الرياء، الكبر، الوسواس، القلق، هذه كلها أمراض قلبية، ومن الملاحظ في الأمراض القلبية أن صاحبها لا يشعر بها كما يشعر بالأمراض البدنية، فليس كل من يتكبر يشعر أنه يتكبر، وليس كل من يحسد يشعر أنه يحسد، نحن فقط نخاف أن يحسدنا الناس لكن لا نخاف على أنفسنا أن يقع منها الحسد!

يحتاج صاحب المرض القلبي لاكتشاف مرضه أحد أمرين: إما أن يتعلم عن أعراض المرض ومظاهره وآثاره من أجل أن يُشخص نفسه بنفسه، ولا بد أن يكون صادقًا في عرض نفسه على هذه الظواهر، أو يكون له صديق صادق أمين عليه يخبره بمرضه، وهو صادق في إرادة كشف المرض، فيبحث حينها عن العلاج.

أما الأمراض البدنية فهي الأمراض التي تصيب البدن بكل أنواعها.

ثانيًا: أسباب الشفاء:

هناك سببان للشفاء جعلهما الله-عزَّ وجلَّ-بين يدي العباد وهو الذي سبب أسبابهما، وبه نستعين على الانتفاع بهما، وفي الحقيقة لازالت هذه مجرد أسباب والذي ينفعنا الله-عزَّ وجلَّ-، وهما: السبب الكوني، والسبب الشرعي.

- **السبب الكوني**: كل الأدوية والعلاجات التي تدخل تحت الاختبارات وتعطي نفس النتائج تقريبًا تحت نفس الظروف تسمى أسبابًا كونية-أي أن الله جعلها في الكون لعباده-وتسمى اليوم ب (التجربة المحكَّمة)، وهذا بخلاف التأثير النفسي الذي يصل من خلاله المريض لانفعال معين ثم يعطى الدواء ويقال له: أرأيت كيف تغيرت؟!

والسبب الكوني واحد من اثنين: إما أنه داخل تحت الأعشاب، أو داخل تحت وزارة الصحة-مثل الأدوية الكيميائية-.

هذا الكلام دقيق جدًا وسيترتب عليه هذا الحكم: الله-عزَّ وجلَّ-جعل سببين للشفاء في الكون لا ثالث لهما؛ فمن ذهب إلى غيرهما فإنه يبتعد كثيرا حتى يكاد أن يدخل في الشرك؛ لذلك ليست المسألة سهلة، فيجب أن تُفهم بدقة.

أمثلة على السبب الكوني:

-الأعشاب، فمثلًا العشبة التي تطلِق البطن لم تختبر في المعامل؛ لكن كل من يأخذها تعطي تقريبًا نفس النتيجة، فهذا مما ثبتت فائدته بالتجربة.

ونحن نسمع أن أعشاب البلد تنفع أهلها أكثر مما تنفع غيرهم فيما لو نقلوها لبلد آخر، وهذا من حكمته-سبحانه وتعالى-، بدنك يناسب الأرض التي تعيش عليها، فيخرج الله لك منها أعشابًا تنفعك أكثر فلا تحتاج أن تسافر الى الخارج لتأخذ عشبة من بلد آخر، غالبًا ما يكون الأمر بهذه الصورة بشأن الأعشاب، هذا السبب كوني داخل تحت التجربة يعطي نفس النتيجة تقريبًا تحت نفس الظروف.

-الأدوية الكيميائية التي يصفها الأطباء.

-وهناك أسباب أمرت بها الشريعة (القرآن أو السنَّة) وهي قابلة للتجربة، ومثالها:

* العسل: بينت الشريعة أن العسل فيه شفاء، وفي نفس الوقت هو قابل للتجربة، فهو سبب شرعي وكوني معًا، والذي يأخذه وهو معتقد شرعيته أكثر من كونيته يكون أكثر انتفاعا به، يعني الذي يأخذه لأن الله أمر به ينتفع به أكثر.

* الحجامة: أمرت بها الشريعة فهي سبب شرعي، وبالتجربة تبين أنها نافعة فهي سبب كوني، وبهذا تصبح سببًا شرعيًا وكونيًا، ولو أخذت به تعبدًا ينفعك أكثر من أخذك له

كسبب كوني، وأحيانًا تستخدم الحجامة لمجرد متابعة السنَّة، بمعنى أنه حتى غير المريض يحتجم متابعة للسنَّة.

* ماء زمزم: الشريعة أمرت به فهو سبب شرعي، لكن هل نستطيع أن نقول إنه سبب كوني؟ هذا أمر قد يتحير فيه العقل؛ لأن ماء زمزم لما شرب له، يعني تشربه لمرض يجعله الله-عزَّ وجلَّ-سببًا للشفاء، تشربه لكي يقوى حفظك فيقوى حفظك. من أجل ذلك هو أقرب إلى السبب الشرعي منه إلى السبب الشرعي الكوني.

أما ما يوصف من علاجات تباع في الصيدليات بماركات تجارية وليست تابعة لوزارة الصحة؛ فهذه ليست أسبابًا شرعية ولا كونية، **ومن أمثلتها**:

- سوار ابن سينا الذي يضعونه للروماتيزم، فهذا لم يدخل تحت التجربة المحكمة، وهذا يصبح كالتمائم المحرمة؛ لأنه ليس سببًا كونيًا ولا شرعيًا، وهو مرفوض من ثلاث جهات:

1- من جهة الدليل: مثل هذه الحلقة ليست ابتكار اليوم؛ فقد مر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-على رجل في يده حلقه من صِفر (يعني: نحاس) فقال النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: "ما هذا؟ قال: هذا من الواهنة"، (والواهنة مرض يصيب اليد يعني كأنها تهِن (تضعف)، فهذا وضع الحلقة من صِفر من أجل أن تأخذ المرض) فقال له النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: ((انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا، فإنك إن مت وهي عليك لن تفلح أبدًا))[1]. فهذا نص صريح في كونها حلقة ومن صفر، وهذا الحديث في مسند الإمام أحمد.

2- أن اللجنة الدائمة للعلماء في المملكة أصدرت فتوى بخصوص إسوارة ابن سينا تقول: إنه لا يجوز استخدامها لأنها ليست سببًا شرعيًا ولا كونيًا.

(1) رواه أحمد في مسنده (20000)، وضعَّفه شعيب الأرناؤوط في تخريج المسند.

3- من جهة واقعية هذه الحلقة: قالوا إنها أتت من بريطانيا وأن عليها تجارب؛ لكن لو دخلت إلى أي موقع ستعلم أن القوم حين كثرت الدعاوى القضائية عليهم أنكروا أنهم قاموا بتجارب عليها فضلًا عن كونها أعطت نتائج!

المؤسف أن هذا أمر تم عرضه ونوقش وأصدرت فتوى بشأنه؛ فماذا عن بقية الأمور؟ وهم ما برحوا يدخلون علينا هذه الخرافات، فما إن ينتهي أمر خرافة ما إلا ويوقعونا فيما هو أنكى منها وأضل سبيلًا، المسألة خطيرة ولأجل أن يسلم توحيدك لا تأخذ شيئًا إلا بعد أن تتيقن أنه سبب كوني، وإن كنت مترددًا تجاه سبب ما هل يعتبر سببًا كونيًا أم لا، هل هو تحت وزارة الصحة أم تحت وزارة التجارة-لأن الصيدليات فيها النوعان-فاتركه لأجل دينك، كلَّما وجدت في نفسك شيئًا من الحرج تجاهه اتركه لأجل دينك؛ فدينك يستحق ذلك، ولا تنسَ قول النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-: " **فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ**" [1]

- ومن ذلك أيضًا: مثلث الطاقة السلبية والطاقة الإيجابية وأمثال ذلك (ليس سببًا شرعيًا ولا كونيًا).
- ومن ذلك قولهم: كُل في صحن مربع لأجل أن يحصل كذا وكذا في طاقة الطعام (ليس سببًا شرعيًا ولا كونيًا).
- حبة الرز من الصين تسحب منك الطاقة السلبية وتصبح عندك طاقة إيجابية (ليس سببًا شرعيًا ولا كونيًا).
- اجلس تحت مبنى هرمي من أجل أن تسحب منك الطاقة السلبية! (ليس سببًا شرعيًا ولا كونيًا).

(1) أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599) واللفظ له.

إلى آخر هذا الكلام، وكل هذا مجرد أكاذيب وكلام فضفاض مليء بالوعود التي لا تنتهي، وكل هذا لا تجده مصرَّح به من وزارة الصحة؛ بل من وزارة التجارة، يعني كل هؤلاء عبارة عن تجار يتلاعبون بالناس، وهناك من يؤيدهم ويدخل منتجاتهم إلى البلدان، وبعدها يتفاضحون في المحاكم الدولية؟ يخدعون الناس بقولهم: (مجرب)، وينكشف أمرهم؛ لكن بعد أن يكون الناس قد خدعوا وانتهى الأمر، وللأسف دول الخليج أكثر منطقة في العالم يُتاجَر فيها بالعلاجات التي تأتي عن طريق الماركات التجارية.

الأسباب الكونية خطيرة لأن فيها مشكلتين:

-إما أن نتعلق بها.

-أو أن نُخدع؛ فنظن أنها أسبابا كونية وهي ليست كذلك.

المشكلة الكبيرة أنك عندما تأخذ سببًا ليس شرعيًا ولا كونيًا؛ فإنك تنحرف من الإيمان إلى الشرك؛ لأن الله هو الذي جعل الأسباب الكونية وهو الذي جعل الأسباب الشرعية؛ لذلك لا بد من الحذر.

ملاحظة: ما يتصل بالجمال والكريمات وما شابهه لا علاقة له بالتطبب، ولا يدخل في كلامنا هنا.

ثانيًا: السبب الشرعي: وهو: (كل سبب للشفاء أمرت به الشريعة غير قابل للتجربة)، إذًا ثمة فارق بين السبب الكوني والشرعي-وهو ضابط غاية في الأهمية-وهو أن السبب الشرعي **ليس قابلًا للتجربة**.

مثال السبب الشرعي:

- **(القرآن)**: ومنه الفاتحة وآية الكرسي، والمعوذات ثلاثًا.
- **(أدعية الشفاء)**: (اللهم رب الناس أذهب الباس) أو (أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)، أو أي دعاء خال من الشرك والتعلق بغير الله[1].

الأسباب الشرعية أعظم تأثيرا وأرجى للشفاء من الأسباب المادية إذا صدرت عن قلب موقن بآثارها، وقد أخبر الله عن هذا القرآن أنه شفاء، وأخبر أنه لو نزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا، وأن هذا القرآن لو أراد الناس أن يسيّروا به الجبال لسيروها وانتفعوا به في ذلك، فقال تعالى: **{وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}**[2] أي: لكان هذا القرآن؛ فكيف يكون للقرآن هذا الأثر البالغ في الأرض والجبال والأنفس؛ ثم نشك في أثره في شفاء أبدانٍ ضعيفة ضئيلة من (ميكروبات) أشد ضعفًا و أكثر ضآلة؟!! لكن بسبب ضعف الإيمان به حُجب نفعه عن كثير من الخلق، ولكنَّ زهد الناس في هذا الدواء وضعف ثقتهم به لا يغير من حقيقته شيئا؛ وهي أنه أنفع دواء على الإطلاق، **ولأجل الانتفاع بالسبب الشرعي هناك شروط لا بد من معرفتها:**

شروط الانتفاع بالسبب الشرعي:

السبب الشرعي هو الرقية الشرعية، وعمادها القرآن، وعماد الرقية به الفاتحة، وهناك أمور يجب أن نعتقدها في الرقية الشرعية:

(1) هذه نسميها رقية؛ أما أذكار المساء فليست رقية، إنما تقال قربة الى الله لتدخل في الذاكرين والذاكرات، وكلما صدقت في قراءة أذكار الصباح والمساء ترتب الأجر على ذلك؛ لكن الرقية لها ضابط شرعي؛ فكلمة (رقية) ينبغي أن تجمع قلبك فيها على الاستشفاء.

(2) [سورة الرعد: 31]

1-أن تعتقد أنها **سبب من الأسباب** التي سببها الله رحمةً بالمؤمنين، فلا تظن أنها هي التي تشفيك؛ إنما تعتقد أن قراءتها سبب جعله الله لك للشفاء، وتعتقد أن هذا السبب الشرعي أقوى من السبب الكوني، وهذا في حق أهل اليقين.

2-**الإيمان واليقين**: قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ} لكن لمن؟ {لِلْمُؤْمِنِينَ}، في مقابل ذلك نجد أن نفس هذا القرآن يكون خسارًا على الظالمين، قال تعالى: {وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا}[1] المرقي لا يُشترط أن يكون مؤمنًا، أما الراقي فلابد أن يكون مؤمنًا، ويعزم بقلبه أن يرفع الله البلاء؛ فيشفى المريض بإذن الله، كما ورد في حديث الصحابة لما وصلوا إلى قبيلة لم تقبل استضافتهم وشيخهم مريض، وهم كفار؛ لكن الصحابة أهل الإيمان قرأوا عليه الفاتحة سبع مرات؛ فكأنه أطلق من عقال، كأنه كان مربوطًا بالمرض ونشط مرة واحدة، فهنا: المرقي كان كافرًا، أما القارىء فمؤمن تام الإيمان، عزم في قراءته؛ فرفع الله-عزَّ وجلَّ-المرض بسبب قوة إيمانه.

ما هو اليقين الذي ينبغي أن يكون مع الرقية الشرعية؟

تتيقن أن القرآن فيه شفاء، وأن الله-عزَّ وجلَّ-وعد من قرأ صادقًا أن يزيل عنه المرض، فتقرأ على يقين أن قراءتك تسبب إزالة المرض أو تخفيفه، لا تقل: أجرب تزيله أو لا تزيله، فهذا إخلال بشرط اليقين يدخلك في الشك، وتصبح مريضًا قلبًا وقالبًا، ولا ننسى أن قراءة الفاتحة أو قراءة الرقية عموما عبارة عن سبب، والشافي حقيقة هو الله.

وكلما كنت أكثر يقينًا كان السبب الشرعي أقوى في تأثيره على المرض من السبب الكوني.

3-**فهم المقروء**: وأنت تستعمل السبب الشرعي لابد أن تفهم ما تقرأ فهمًا عميقًا، وتفهم أثره على بدنك.

لابد أن تتصور ما معنى ربوبيته-سبحانه وتعالى-لك حين تقول: {رب العالمين}، ما معنى {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ماذا يعني {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}، هذا الفهم للآيات سبب لقوة تأثيرها عليك، ومثلها قل هو الله أحد، وآية الكرسي، والمعوذتين؛ كلما فهمتها أكثر زاد أثرها في الرقية.

(1) [سورة الإسراء: 82]

4-**استعمالها على السنَّة كما أمر النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-**: تقرأ الفاتحة سبع مرات، تقرأ قل هو الله أحد، تقرأ المعوذتين، تضع يدك على مكان الألم، تنفث وتمسح، كل هذه الطرق-ولا مجال لشرحها الآن-لابد أن تأخذها بطريقة موافقة للسنَّة حتى يحصل انتفاعك بها، فلا تُدخل البدع على مسألة الاستشفاء.

واعلم أن الرقية الشرعية ليست محصورة في قراءتك للفاتحة سبع مرات والمعوذتين وآية الكرسي؛ بل القرآن كله شفاء، وأيضًا لو دعوت الله وأنت تضع يدك مكان الألم وتوسلت إليه قائلا: يا رب أنا عبد ضعيف وليس لي إلا أنت، وذكرتَ ما تشعر به، وكان كلامًا يشهد بالتوحيد وخاليًا من الشرك؛ فهذا أيضًا نوع من أنواع الرقى، والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-قال: **((اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقية ما لم تكن شركا))**[1]، فالرقية بالأصل هي الدعاء طلبًا للشفاء، ونحن حين نقول في **الفاتحة** "**إياك نعبد واياك نستعين**"؛ فنحن نطلب الإعانة على القيام بالأعمال، **والإعانة على ما في أبداننا من آلام**، ونرجو أن يدلنا الصراط المستقيم، ثم نقول: آمين، إذًا هي (دعاء)، وكذلك **المعوذات** نوع من أنواع الدعاء، وهو الاستعاذة؛ نستعيذ به ونلجأ إليه من شر كل شيء، فإذا فهمنا الأدعية وآيات الرقية سيتبين لنا أننا لو دعونا أيضًا بما يجري على ألسنتنا وقتها سيكون في هذا نفع أيضًا؛ وثمة خطأ يقع فيه البعض هنا وهو أنهم إن فتح لهم بكلمات دعوا بها فشفاهم الله يبدؤون بنشرها وتبادلها، وهذا خطأ، فلا نتبادل ولا نتوارث إلا كلام الله وكلام النبي-صلى الله عليه وسلم-، أما ما يُفتح لك لحظة الألم أو لحظة الحاجة من دعاء فهذا ينفعك الله به لا من أجل الكلمات؛ إنما من أجل ما قام في قلبك من استغاثة به-عزَّ وجلَّ-ولجوء إليه.

وإليك هذه القاعدة: كلام الله-عزَّ وجلَّ-وكلام نبيه-صلَّى الله عليه وسلَّم-تنفعك بإذن الله: (ألفاظه) و (ما قام في قلبك)؛ أما أدعيتك التي تخرج من لسانك وقت الحدث فلا تنفعك فيها ألفاظها؛ إنما ينفعك فيها ما قام في قلبك من ذل وانكسار وطلب وفقر حقيقي إلى الله.

لذلك لا نكتب أدعيتنا الخاصة بنا ونوزعها للناس؛ بل نلتزم السنَّة ونحذر من دخول البدعة علينا.

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك، 2200)

توصلنا الآن إلى أربع نقاط حول شروط استعمال الرقية الشرعية:

1-أنها سبب من الأسباب، والله-عزَّ وجلَّ-هو الشافي.

2-أن هذا السبب يحتاج إلى يقين، واليقين رديف الإيمان، كلما زاد إيمانك ويقينك زاد انتفاعك بالرقية الشرعية.

3-أننا نحتاج أن نفهم ما نقوله فلا يكون بالنسبة لنا مجرد كلام؛ لأنه كلما زاد فهمك زاد انتفاعك.

4-أن نستعمل الرقية الشرعية الموافقة لسنَّة النبي-صلى الله عليه وسلم-.

والأصل جواز أن يرقيك أحد، لكن كلما زاد الإيمان كان الكمال ألا تطلب من أحد الرقية؛ بل ترقي نفسك بنفسك، وانظر إلى السبعين ألفًا ما وصفهم؟

السبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يطلبون الرقية، ولا يطلبون الكي-مع أن هذا نوع من العلاج مسموح به شرعًا-ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون. (صفتان رئيسيتان من صفاتهم لهما علاقة بالتطبب).

ما ميزتهم الأساسية؟

ميزتهم الأساسية هي **"كمال التوحيد"**، قوِيَ عندهم التوحيد؛ فأصبحت حياتهم تدور حول الله ورضاه، هو المسؤول أن يكشف عنهم كل ضر، لا تزيغ قلوبهم عنه يمنة ولا يسرة، كلما شعروا بنقص في قليل حاجة أو كبيرها لجؤوا إلى ربهم وقالوا: يا الله، وأثناء سيرهم تركوا السبب الكوني إلى السبب الشرعي، لأنهم يعلمون أن الله وراء كل شيء، ويعلمون أن كلامه شفاء بأمره؛ **فضيقوا طلبهم للشفاء حول السبب الشرعي، ثم أتوا إلى السبب الشرعي فلم يطلبوه من أحد؛ إنما استعملوه بأنفسهم تعلقًا بالله؛ فضاقت دائرة تعلقهم بما سوى**

الله حتى لا تكاد توجد في حياتهم.

وننبه هنا أن لا يأتي أحد هو بالأساس لا يستعمل الرقية الشرعية؛ ثم يظن نفسه مثل هؤلاء السبعين ألفًا لا يسترقي؛ فهذا من الأساس ليس داخلًا تحت هذا الشأن، إنما يدخل فيه أولئك الذين ضيقوا واسعًا–وهو السبب الكوني لأنه أمر واسع وكله جائز–بسبب قوة إيمانهم بالله وبما أخبر به عن كون القرآن شفاء حتى أصبحت قلوبهم متجهة للقرآن لا تريد طرق باب أي أحد من قوة تعلقها بالله، ثم بعد هذا التعلق بالاستشفاء بالقرآن لم يطلبوا الرقية من أحد؛ بل رقوا أنفسهم بأنفسهم، فهذا حال السبعين ألفًا: تركوا الاكتواء والاسترقاء بعزيمة التوكل على الله والتعلق به لا أنه مجرد الترك، فمن ترك الاسترقاء بهذه النية وبهذه العزيمة دخل فيهم، وإلا فلا[1].

مسألة: الناس صعبوا على أنفسهم مسألة الرقية حتى وصلوا إلى درجة ظنوا فيها أنه لا يمكنهم أن يرقوا أنفسهم، ولو فهموا ما هي الرقية لسهل عليهم القيام بها؛ فالرقية هي طلب الشفاء، وطلب الشفاء إما أن يكون:

–بدعاء تقوله بشرط أن يكون خاليًا من الشرك، فتسأل الله–عزَّ وجلَّ–بأسمائه وصفاته.

–أو بقراءة ما ورد في السنَّة من الآيات والأدعية طلبًا للشفاء.

(1) لو وضع أحد يده على مكان الألم عندك وقرأ دون طلب منك فلا بأس بهذا؛ لأن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–رقى، وعائشة رضي الله عنها رقت، إنما المسألة دائرة حول الطلب؛ فهم من قوة إيمانهم وتعلقهم بربهم لا يطلبون من أحد شيئًا، حتى الرقية لا يطلبونها من أحد، ولو توجعتَ أمام أحد لأجل أن يشفق عليك؛ فيعرض عليك الرقية؛ فهذا نوع من الاحتيال في الطلب.

شقَّ الناسُ على أنفسهم حين ظنوا أنه لأجل أن يكونوا قد قاموا بالرقية لأنفسهم فلا بد أن يقرؤوا سورة البقرة، في حين أن المسألة أقرب وأيسر من هذا بكثير، وسبب هذا التضييق هو ابتعاد الناس عن السنَّة؛ إذ ترتب على هذا البعد أن يأتي كل واحد باقتراح من عنده، ومن ثَمّ أشكل على الناس فهم مسألة الرقية[1].

ما علاقة سورة البقرة بالرقية؟

لم يرد عن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أن سورة البقرة بعينها رقية؛ وإنما هي داخلة تحت عموم كون القرآن شفاء، فنحن بين النصوص التي دلت على أن النبي رَقى ورُقي **بالفاتحة**، وحديث الصحابة الذين رقوا بالفاتحة وأقرّهم النبي–صلى الله عليه وسلم–، وكذلك النصوص التي دلت على الرقية **بالمعوذات** كما في حادثة سحر النبي–صلى الله عليه وسلم–، وما ورد من أن النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–كان يتعوذ بهما، وكذلك آية **الكرسي** مثلهما.

هذه النصوص التي وردت عنها أدلة تخصها بعينها؛ أما باقي آيات القرآن فتدخل تحت عموم أن القرآن شفاء، وهذه قاعدة عامة؛ فإذا اقترح أحد قراءة شيء ما لمدة أربعين يومًا متواصلة وما شابه ذلك؛ فإننا نسأله عن دليله من السنَّة.

القرآن كله شفاء: تقرأه بنيّة الشفاء؛ فيرفع الله–عزَّ وجلَّ–عنك الضر–بسورة البقرة أو بغيرها–أما تخصيصها بأيام وإلزام الناس بها، واشتراط الجلوس وعدم الحركة؛ فمن أين لهم هذا؟! قد ضيقوا بذلك واسعًا، فالرقية أصلًا معناها: طلب الشفاء من الله؛ تطلبه بلسانك دعاءً، وتطلبه بآيات القرآن.

(1) لمعرفة الرقى الشرعية وغير الشرعية يمكن القراءة في كتاب الطب في صحيح البخاري، وفي شرح كتاب التوحيد في الرقى والتمائم.

أول ما تشعر بألم مباشرة تقول: (أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِن شَرِّ ما أَجِدُ وَأُحَاذِرُ)[1]، تتعوذ بالله، هل تعرف ما معنى (أعوذ)؟ هذه كلمة عظيمة معناها: ليس لي مهرب إلا الله، أهرب سريعًا إليه أول ما أشعر بالخطر، الأمر لا يحتاج منك أكثر من لحظة، في ثانية واحدة تفزع الى الله، صرنا نختار الرقى الطويلة المتطاولة التي تشعرنا بالإنجاز ونبخل أن نجاهد بقلوبنا لحظة من زمان! إن كلمة (أعوذ) وحدها تكفيك، ولكن هذه العبادة-عبادة الاستعاذة-تحتاج منك أن تطهر قلبك تطهيرًا عظيمًا.

ومثلها الاستعانة؛ فالاستعاذة والاستعانة عبادتان بهما تصلح الحياة؛ ولهذا لابد من معرفتهما، وقد اشتملت سورة **الفاتحة والفلق والناس** عليهما، ونحن بهذا لا نطلب من الناس عدم الذهاب للأطباء؛ لكن نخبرهم بأنه كلما زاد إيمانكم وعلمتم حقًا أنه ليس وراء أسباب الشفاء إلا الله فسيكون المرض قربة لكم إلى الله، وكلما زاد إيمانكم سيزداد تحولكم من الأسباب الكونية الى الأسباب الشرعية؛ ولهذا ليس كل الناس يخاطبون بنفس الدرجة؛ فإذا ضعف الإيمان تغير الخطاب؛ لكن هناك حد أدنى لا بد أن يأتي به كل أحد وهو أنه يجب أن لا يتعلق بغير الله، لا بأس أن يذهب إلى الطبيب، لكن لا يعتقد بأي حال أنه سيكشف عنه الداء؛ إنما الله هو الذي يوفّقه أن يكتب له دواءً يناسبه، ثم الله-عزَّ وجلَّ-هو الذي يأمر هذا الدواء فينفعه، هذا هو الحد الأدنى الذي نشترك فيه كلنا، ولنتذكر كلام إبراهيم-عليه السلام-في سورة الشعراء عن أصول الحياة كيف نسبها كلها لله-عزَّ وجلَّ-:

قال: {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ}[2]

أمور هي الحياة بأسرها، وكلها بيد الله وحده:

1- خلقك الله في الحياة؛ فمن الذي سيدلك على طريقه؟ {الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ}.

2- وكما أنك تحتاج في حياتك إلى الهداية كمطلب أول؛ فإنك تحتاج الطعام والشراب؛ فمن يملكهما؟ {والذي هو يطعمني ويسقين}.

(1) رواه مسلم في صحيحه (كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء، 2202)

(2) [سورة الشعراء 78-82]

3- ومن سنن الله أن جعل هذا البدن يتعرض للمرض؛ فمن يملك الشفاء؟ **{وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}**.

ونركز على أمر الشفاء: قد بينت الآية حصْرَ الشفاء عليه سبحانه: **{فهو يشفين}** وليس غيره، لكنه سبحانه جعل للشفاء أسبابًا هو الذي يسببها، وهو سبحانه الذي ينفع بها، فهو الذي يُسري في بدنك الشفاء على يد طبيب أو عشبة أو غير ذلك، وكلما زاد إيمانك زاد فيك التحول من السبب الكوني إلى السبب الشرعي، وليُعلم أنه حتى الأخذ بالسبب الشرعي الناس ليسوا فيه سواء، وقد ذكرنا أن الانتفاع بالسبب الشرعي يتطلب فهمه أولًا؛ ولهذا **سنتكلم الآن عن الفاتحة**، ونفهم معانيها بالتفصيل من أجل أن تقع في قلوبنا موقعها[1].

وقبل أن نبدأ بشرح الفاتحة سنقارن بين أمرين: نفث الرقية، ونفث النفاثات في العقد:

نحن نقرأ الفاتحة للرقية و**ننفث**، ونقرأ المعوذات و**وننفث**-كما هو الحال عند النوم-، وأيضًا الساحرات يقرأنَ و**ينفثن**؛ فما الفرق بين هذا النفث وذاك النفث؟

ما هي العملية التفاعلية التي تحصل فتجعل للنفث هنا أثرًا وهناك أثرًا آخر؟

الجواب: هذه العملية مركبة من ثلاثة أجزاء تجعل هذا النفث فيه بركة يمسح به على المكان فيبرأ، أو تجعل فيه شرًّا يُعقد به ويُسحر؛ فلا تستهينوا بهذا النفث!

(1) الناس اليوم في زهد شديد بالاستشفاء بها مع أن قراءتها سبع مرات لا تكلفهم شيئًا من جهة الزمن؛ لكن مسألة تصعيب الرقية وإلزام الناس بإلزامات لم ترد في السنة سبَّبت تقليل أخذ الناس بالرقية أو الابتعاد عنها، فحين يرشد الناس بعضهم بعضًا بالتزام شروط بدعية يؤدي ذلك إلى أن يفضل أحدهم انتظار الطبيب بالساعات على أن يرقي نفسه كما يخبرونه، فانظروا ماذا تفعل البدعة في الخلق؟!

أجزاء هذه العملية:

1-النفسُ التي تقرأ نفسٌ **طيبة** مؤمنة موحدة تفهم ما تقرأه وتتيقن به: تعرف معنى (**إياك نعبد وإياك نستعين**)، تعرف أنها ضعيفة، وأنه لا حول لها ولا قوة إلى بالله، إلى آخر ما سنذكره الآن في معاني الفاتحة. (هذا الجزء الأول).

2-الكلام المقروء كلامٌ **طيبٌ**: والكلام الطيب هو الفاتحة أو القرآن عمومًا. (هذا الجزء الثاني).

3-النَّفَسُ الخارج نَفَسٌ **طيب**: تتفاعل النفس الطيبة المتيقنة مع الكلام الطيب؛ فيخرجان نفَسًا طيِّبًا من طيب القرآن. (هذا الجزء الثالث:نفس طيبة + كلام طيب = نفَسًا طيبًا تمسح به؛ فيَبرأ المريض).

وعكس ذلك:

1- نفْسٌ **خبيثة**-الساحرات أو السواحر عمومًا-نفسٌ خبيثة تكيفت على الخبث، تكيفت على الشرك بالله-عزَّ وجلَّ-، تتقرب إلى الجن بأنواع الشرك والكفر حتى يخدموها.

2- كلامٌ **خبيث**: حين تطلب السواحر من الجن تقول كلامًا خبيثًا كله شرك.

3- نَفَسٌ **خبيث**: تتفاعل النفس الخبيثة مع الكلام الخبيث؛ فينتج عنه نفسًا خبيثًا. (نفس خبيثة + كلام خبيث = نفَسًا خبيثًا تنفُث وتعقد منه؛ فيقع السحر).

نعود الآن للكلام عن الفاتحة، وسنبدأ ب: {إياك نعبد وإياك نستعين} باعتبارها قلب الفاتحة، ثم نمر مرورًا سريعًا على أولها وآخرها:

يقول ابن القيم في الاستشفاء بالفاتحة:

قَدْ قِيلَ: إنَّ مَوْضِعَ الرُّقْيَةِ مِنها: {إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ} ولا رَيْبَ أنَّ هاتَيْنِ الكَلِمَتَيْنِ مِن أقْوى أجْزاءِ هَذا الدَّواءِ، فَإنَّ فِيهِما مِن عُمُومِ التَّفْوِيضِ والتَّوَكُّلِ، والِالتِجاءِ والِاسْتِعانَةِ، والِافْتِقارِ والطَّلَبِ، والجَمْعِ بَيْنَ أعْلى الغاياتِ وهي عِبادَةُ الرَّبِّ وحْدَهُ، وأشْرَفِ الوَسائِلِ وهي الِاسْتِعانَةُ بِهِ عَلى عِبادَتِهِ ما لَيْسَ في غَيْرِها.

ثم قال في نفس هذه الآية:

فَإنَّ هَذا الدَّواءَ مُرَكَّبٌ مِن سِتَّةِ أجْزاءٍ: (١) عُبُودِيَّةِ اللَّهِ لا غَيْرِهِ (٢) بِأمْرِهِ وشَرْعِهِ (٣) لا بِالهَوى (٤) ولا بِآراءِ الرِّجالِ وأوْضاعِهِمْ، ورُسُومِهِمْ، وأفْكارِهِمْ (٥) بِالِاسْتِعانَةِ عَلى عُبُودِيَّتِهِ بِهِ (٦) لا بِنَفْسِ العَبْدِ وقُوَّتِهِ وحَوْلِهِ ولا بِغَيْرِهِ.

فَهَذِهِ هي أجْزاءُ {إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّاكَ نَسْتَعِينُ} ؛ فَإذا رَكَّبَها الطَّبِيبُ اللَّطِيفُ العالِمُ بِالمَرَضِ، واسْتَعْمَلَها المَرِيضُ؛ حَصَلَ بِها الشِّفاءُ التّامُّ، وما نَقَصَ مِنَ الشِّفاءِ فَهو لِفَواتِ جُزْءٍ من أجزائها أو اثنين أو أكثر. **انتهى كلامه رحمه الله تعالى.**

وقوله: عبودية الله لاغيره: يعني أن يكون على بالك أول الأمر وقوع عبودية الله في قلبك، وقوع التوحيد بـ{إياك نعبد}، وأعبد بمعنى: أتعلق وأعظم، هذه نقطة مهمة جدًا: نبدأ من نقطة (عبادة)، معناها: الذل، طريق معبد يعني:طريق مذلل، والإنسان إذا كان عبدًا فإنه يكون ذليلًا، هذا الذل لا يقع في القلب إلا بأمرين: المحبة، والتعظيم.

الاثنان معًا يحملان قلبك على أعتاب الذل، والذل هو لب العبادة.

مهم جدًا أن تبقى هذه الصورة في عقلك؛ لأننا نخطئ كثيرا حين نحصر كلمة (عبادة وعبودية) على الأعمال الجارحية فقط؛ فأنت تعيش كل الحياة في حال من العبودية، ومعنى هذا أن تكون عبدًا على كل أحوالك، فكيف سيتحقق هذا وعبادة الجوارح لا تأخذ الكثير من الوقت؟

لا يتحقق هذا إلا حين يبقى قلبك يتحرك و يغلي محبةً وتعظيمًا لمولاك، ولسانك ينطق: أنا لك عبد؛ أعبدك ولا أعبد غيرك، ليس لي محبوب سواك ، وليس لي معظَّم إلاك، فتجمع في عبوديتك لهذا الملك العظيم بين أمرين: بين حبه تمام المحبة، وبين تعظيمه تمام التعظيم، وهذا الذي يورثك كمال الذل والخضوع له سبحانه، فهي ليست كعبودية الخلق التي فيها الذل البغيض؛ إنما هي عبودية الملك العظيم التي فيها الذل للمحبوب، وهذا الذل للمحبوب تأتي به نفوسنا تلقائيا لأحبتها؛ فما بالك إن كان المحبوب هو كامل الصفات، المحسن بجميع أنواع الإحسان، العظيم البر الرحيم؟! وقد لاحظت بلا شك أنك لم تقل: (**إياك نعبد**) إلا بعد أن ردَّدت كمال صفاته في أول الفاتحة!

بل أنت لا تستطيع حبه ولا تعظيمه إلا بمعرفته؛ فالمعرفة هي التي تأتي بالمحبة وهي التي تأتي بالتعظيم، فأنت قبل أن تصل إلى (إياك نعبد) كنت قد قلت له "الحمد كله لك"، والحمد ليس هو الشكر؛ بل هو اعتقاد كمال من نحمده فنثني عليه:

- **{الحمد لله}**: يعني أنا أعتقد أنك كامل الصفات لذلك أنا أحمدك[1] و الله–عزَّ وجلَّ–من لطفه بنا يسر علينا العبودية بعدة طرق، ومنها:

– أنه سبحانه فطرنا وركَّب في قلوبنا حب الكمال، وأخبرنا عن شيء من صفاته الكاملة ليقع في قلوبنا حمده، فالحمد كله لك يعني: ليس في قلبي ثناء لأحد إلا لك؛ لأني على يقين أن كل المخلوقات تشترك في نقص الصفات وأنت وحدك كامل الصفات.

(1) أما الشكر فهو لما نرى من آثار نعمائه علينا؛ فالشكر جزء من الحمد، والحمد أوسع من الشكر، الحمد يكون على النعمة ويكون على كمال الصفات حتى لو لم يلحقك منها شيء، والشكر على النعماء التي تلحقك منه سبحانه.

- وأنه سبحانه يراقبنا ويرعانا؛ فكلما زادت ثقتنا في كمال أحد كشف لنا شيئًا من نقصه، كلما تيقنتُ أن فلانًا هذا لو سألته لا يردني أفاجأ بموقف يردني فيه، لكي أتيقن أن كل من سوى الله ناقص، بهذه المواقف يعينك الله على أن لا نلتفت لغيره-سبحانه وتعالى-، فتعلم كمال صفاته في مقابل نقص صفات الخلق، فلا تتعب نفسك، ولا تكشف ستر الناس، بل كلما قيل لك عن أحد أنه كامل فقل في قلبك: لا أتعرض له في موقف ولا أكشف سره، أنا أعلم أنه لابد أن يكون ناقصًا، والكمال كله لله.

إذًا: الحمد لله أي: أنا أعتقد أنه وحده الذي يستحق الثناء لما له من كمال الصفات، وجميل الإنعام.

- **{رب العالمين}**: ثم تنظر إلى آثار ربوبيته في الكون، إلى تربيته لك التربية العامة والتربية الخاصة، تقول: الحمد لله رب العالمين وأنا أثني عليك لما أرى لك من كمال صفاتك وأنا أراها في ربوبيتك ياربنا، فأنا أرى آثار تربيتك لخلقك من النقص إلى التمام، أرى كيف يأتي الطفل الضعيف الذي لا يملك من شأن نفسه شيئًا؛ فتسخر له أمًّا ترعاه، وترزقه طعامه، وتهيئ له الرعاية، وتسخر له العاطفة، وتُلقي له المحبة، عجبًا، كيف يحب الأهل فجأة لحمة لا تنفع ولا تضر، يحبونها كل هذه المحبة بأي مناسبة لولا أن الله يلقي عليها محبتهم؟ ثم يجدون أنفسهم شفيقين رحيمين معطائين يبذلون كل مايملكون لأجلها! أليس هذا من آثار ربوبيته لهذا الطفل؟

هذا موسى-عليه السلام-؛ يلقى في التابوت ليصل إلى فرعون وقومه الحريصين على قتله؛ فيسخر له امرأة فرعون، ويقول الله عنه-سبحانه وتعالى-في طه: **{وألقيت عليك محبة مني}**[1] وفي القصص تدافع امرأة فرعون عنه وتقول: **{قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا}**[2]، مباشرة في لحظة واحدة، في لحظة فتحِ التابوت كيف ألقي في قلبها كل هذا الحب، هذا كله من أين؟ هذا كله من آثار ربوبيته للخلق، اعلم أن آثار تربيته لخلقه وإطعامهم وسقيهم وتنشئتهم وتقريب الأمور لهم وتحويلهم من حال النقص إلى الكمال كل هذا من آثار اسمه الرب.

(1) [سورة طه: 39]
(2) [سورة القصص: 9]

كلما رأيت آثار تربيته التي أتتك بكل رحمة، تقول له: الحمد لك يا رب، أرى آثار كمال صفاتك، وأرى جميل إنعامك في تربيتك لهؤلاء الخلق كلهم، وفي تربيتك لأهل الإيمان خاصة؛ فها أنت تناولهم الإيمان وتقربهم إليك، وتيسر لهم الأمور، وتجعلهم يفهمون الحياة كما ينبغي، وتحبب إليهم الإيمان وتزينه في قلوبهم.

- ثم إنك تربيهم بكل رحمة {رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} ذو الرحمة الواسعة، ذو الرحمة الواصلة، فأنا أشهد أن الثناء كله لك، وأنك كامل الصفات لما أرى من تربيتك التي كلها رحمة.
- ثم إني أعلم أنك عظيم وأني سألقاك يوم القيامة، وأنك مالك ذلك اليوم: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

انظر ماذا يقع في القلب من محبة، وما يقع في القلب من تعظيم لو تأملت هذه المعاني عن ربوبيته-سبحانه وتعالى-، وعن رحمته، وعن كونه سبحانه مالك يوم الدين يوم اللقاء وما يكون فيه من العفو عن الموحدين، وعقوبة المجرمين، هذا كله لو فهمته تفصيلًا، سيملأ قلبك بمشاعر حبه وتعظيمه-سبحانه وتعالى-.

- وبعد أن يمتلئ قلبك بالحب والتعظيم تقول له: {إياك نعبد}: يعني أنا أحبك غاية المحبة وأعظمك تمام التعظيم، وهذه المحبة وهذا التعظيم في قلبي لا أستطيع ترجمته عملًا قلبيًا وعملًا حسيًا إلا إذا منحتني الحول والقوة، إلا إذا أعنتني، {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} من تمام معرفتي بحقيقة نفسي ومن تمام معرفتي بك أعلم أنني لا أستطيع أن أحرك ساكنًا لو لم تُعِنِّي.

هذه حقيقتك؛ فلا تظن أنك في الدنيا تختبر بقوتك أبدًا، لست مطالبًا بأن تعبد الله بقواك؛ فلا قوة لك على الحقيقة إلا بالله.

- {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}: ثم أقول له: جماع ما أريده في هذه الحياة أن تهديني الصراط المستقيم؛ لأني أعلم أني لا أهتدي إلى هذا الصراط ولا أثبت عليه ولا يصلح شأني فيه إلا إذا أذنت لي بذلك، وأعلم أنك ستحبني إن هديتني إليه ، وأنك إذا أحببتني كنت سمعي الذي أسمع به، وبصري الذي أبصر به، ويدي التي أبطش بها، فنهاية

آمالي أن أكون محبوبًا إليك، نهاية آمالي أن أكون في الأرض ويحبني من في السماء؛ فإذا أحبني من في السماء جُعل لي صيتًا في السماء، واستغفر لي حملة العرش باسمي، واستغفر لي من حول العرش باسمي، ثم أهل السماء يفعلون مثل هذا.

أنت تذكر الله في الأرض وهم يحبون الله ويحبون من يحبه الله؛ فإذا أحبك الله أحبوك وذكروك واستغفروا لك، وسألوا الله-عزَّ وجلَّ-لك الثبات، فأصبحت وأنت في الأرض لا يعلم عنك أحد يعلم عنك من يحمل العرش والملائكة العظام، فهذا كله وراء قولك **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**.

لا يريد الله-عزَّ وجلَّ-من العبد إلا الإقبال بقلبه عليه: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا}** أقبلوا عليه بقلوبهم، كيف عاملهم الله؟ **{زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}** ، حتى تقواك إنما هي من منَّته -سبحانه وتعالى-على قدر إقبال قلبك عليه.

- **{صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ}**: ثم تقول لربنا: وأنا أعلم أن خير من سار على هذا الصراط المستقيم هم الأنبياء والمرسلين، والصديقين، والشهداء وصحابة نبيك-صلى الله عليه وسلم-، فأنا على نهج هؤلاء السلف أسير، وأتقرب إليك بنهجهم؛ لا أبتدع ولا أبتعد عما أمرتني به، فلا تجعلني يا رب من المغضوب عليهم ولا من الضآلين:
- **{غير المغضوب عليهم ولا الضالين}**: لا تجعلني ممن يتعلم ولا يعمل، أو ممن يعمل بلا علم.

كل هذه المعاني العظيمة لابد أن تتجدد في قلبك؛ فحين تأتي مكان الألم تقول:

الحمدلله رب العالمين وتكون حقًا تشعر أن له كمال الصفات وأن قلبك عنه راضٍ، وأنه حقًا رب العالمين، وأنه الذي غذَّاك ورباك وحوَّلك من حال النقص إلى حال التمام؛ فأنت لست إلا في تربيته، لست إلا في عطائه: **((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ))** فهو الرب الذي يطعمني، والرب الذي يسقيني، رب العالمين وقد رباني بتمام رحمته، حال خطئي

لا أرى عقوبته نازلة؛ إنما أرى حلمه ولطفه، وأرى كثيرًا من آثار رحمته عليّ وعلى خلقه.

كلِّم الله–عزَّ وجلَّ–بألفاظ الفاتحة وأنت تعتقدها، هذا النوع من القراءة الواعية هي التي تنفع الإنسان في إزالة الألم؛ عظِّمتَه ومجدته وتعلق قلبك به وأخبرته أن حبه أهم شيء عندك؛ فكيف تحب حبه وهو لا يحبك؟!

ما إن يقبل العبد على ربه إلا ويُقبل الرب–سبحانه وتعالى–على عبده، ألم تسمع الحديث: ((**وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا**))[1] وهو الملك العظيم، وهو الملك الغني عن خلقه، لا حاجة له عند الخلق أبدًا.

هكذا فليجتمع قلبك على معاني الفاتحة من أجل أن تنزل آثارها على بدنك.

الفاتحة كنز عظيم؛ لكن كم من مهمل لها، كنز عظيم؛ لكن أين المقدِّرون؟!

انظر إلى تقديرك لهذا الكنز في لحظات فزعك؛ فما هو إلا أن تشعر بأقل الآلام حتى تفزع للدواء وتنسى الله؛ مع أن لحظات الفزع هذه فرصتنا للتقرب إليه، ولقضاء حاجاتنا، والنبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–كان أول ما يحزبه أمر يفزع إلى الصلاة.

حين يمتلئ القلب إيمانًا تقرأ الفاتحة على مكان الألم سبع مرات فتشعر وأنت في المرة السابعة أنك تجد أثرها في قلبك وفي بدنك مباشرة، وذلك بسبب قوة الإيمان؛ فإن الإيمان كلما ازداد قوة نفعك القرآن أكثر.

هل تتصورون أثر الإيمان؟ الإيمان إن وقع في القلب صلح الجسد من جهتيه: المسلكية الجارحية، والصحية!

(1) أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675) واللفظ له.

أسئلة:

سؤال: من الذي يجتمع قلبه على الفاتحة؟ الراقي أو المرقي؟

الجواب: أحسن الأحوال الراقي والمرقي معًا، والأفضل أن ترقي نفسك بنفسك، بالذات في الفاتحة ارقِ نفسك بنفسك؛ لكن لو كان هناك راقيًا ومرقيًا؛ فالمهم أن يكون قلب الراقي مجموعًا على الله–عزَّ وجلَّ–ومتعلقًا به، وإذا اجتمع الراقي والمرقي على فهم معاني ما يقرأ فقد تم الخير وأصبحت حلقة تامة.

سؤال: هل الأجدى في الرقية أن أقرأ الفاتحة مرات ومرات، أم أقرأ غيرها من القرآن؟

الجواب: الفاتحة أولى لما فيها من معاني إذا جمعت قلبك عليها سيحقق الله لك مرادك، ثم إنه ورد في صحيح مسلم قول النبي–صلَّى الله عليه وسلَّم–أن بابًا انفتح في السماء لم ينفتح قبل اليوم فنزلت منه سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة؛ فما ظنُّك بسورة فتح لها باب من السماء لم يفتح من قبل؟! فالمقصود أن تكتفي بها عن كل شيء، لكن هذا يأتيك بعد أن تفهمها، فحين تفهمها يكون لها هذا الأثر العظيم عليك، وأيضًا بعد فهمها تحتاج إلى مراجعة معانيها دومًا وتجديدها في قلبك؛ لأن المعاني تخبو في القلب، فيكون المعنى واضحًا ثم مع

مرور الأيام يخبو، ويُنسى.

سؤال: لو جاء المرقي وقلبه ليس فيه يقين في القرآن أصلًا، إما لأن أهله قد غصبوه مثلًا، أو جاء ليجرب؟

الجواب: نقول هذا أتى بسببٍ يمنع عنه نفع القرآن، الصادّ عن القرآن يحجبه الله عنه إلا إذا أراد الله به خيرا، بعض الناس يأتون وهم معرضون عن القرآن؛ فيظهر الله لهم آياته، يريد الله بهم الخير؛ فيقرأ القرآن عليهم أحد؛ فيُشفيهم الله من أجل أن يدخل إلى قلوبهم اليقين، يسبب لهم الأسباب لذلك، لكن الأصل أنه لو جاء ولا يتيقن بالانتفاع بالقرآن لن ينتفع به {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}[1] يعني الذي يأتي وقلبه فيه تقوى هذا الأصل؛ ولذلك عندما يخبر الله-عزَّ وجلَّ-عن القرآن يخبر أنه للذين آمنوا سبب لزيادة الإيمان، و عندما يخبر القرآن عن الطرف الآخر يقول إنه عليهم عمى، على من ليس مقبلًا على القرآن يصبح عمى، لا يزيدهم إلا خسارا.

سؤال: لو أتى وهو متأكد أن القرآن ينفع؛ لكن ليس عنده كل هذه المعاني في الفاتحة؟

الجواب: لا بأس أصبحت هذه مسؤولية الراقي.

الراقي هو من يجمع قلبه على فهم الآيات، وإذا اجتمع معه قلب المرقي فقد اكتملت الحلقة، لكن الحد الأدنى للمرقي أن يأتي مقبلًا على القرآن، فسيرى كيف يجعل الله-عزَّ وجلَّ-هذا القرآن طبيبًا لبدنه كما أنه طبيب لقلبه، وكل آية تقرؤها تؤجر عليها بإذن الله حتى لو كانت نيتك الشفاء، تؤجر على صدقٍ قام في قلبك، الأسباب الكونية نقول لك: إنها جائزة،

(1) [سورة البقرة: 1-2]

لا أحد يمنعك منها إذا كانت سببًا كونيًا، لكن عندما نأتي للأسباب الشرعية التي هي آيات القرآن بالطريقة التي وردت عن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم-نقول لك: ينتقل الحكم من الجواز إلى الندب، فنقول: ليست جائزة فقط؛ بل مندوبة وتؤجر على أخذها، وهي سبب لزيادة إيمانك، وتثبيت وجدانك، وشرح صدرك، فهذه كلها آثار ومصالح جانبية من الرقية الشرعية.

نسأل الله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعاني كلامه، وأن يجعله شفاء لقلوبنا وأبداننا، وهدى ورحمة، إنه خير مسؤول، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.